مكتبة
Telegram
Network
2020

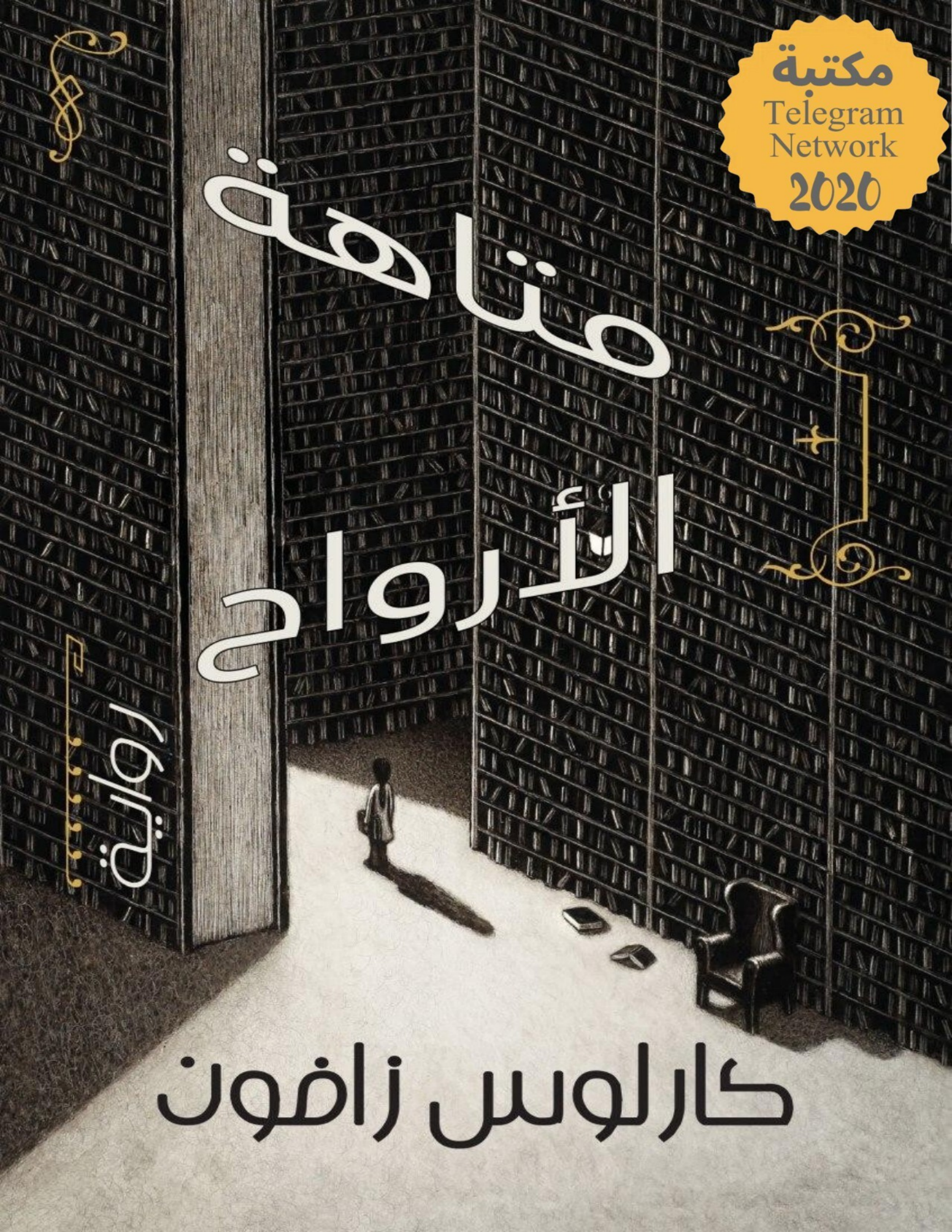

متاهة الأرواح

رواية

كارلوس زافون

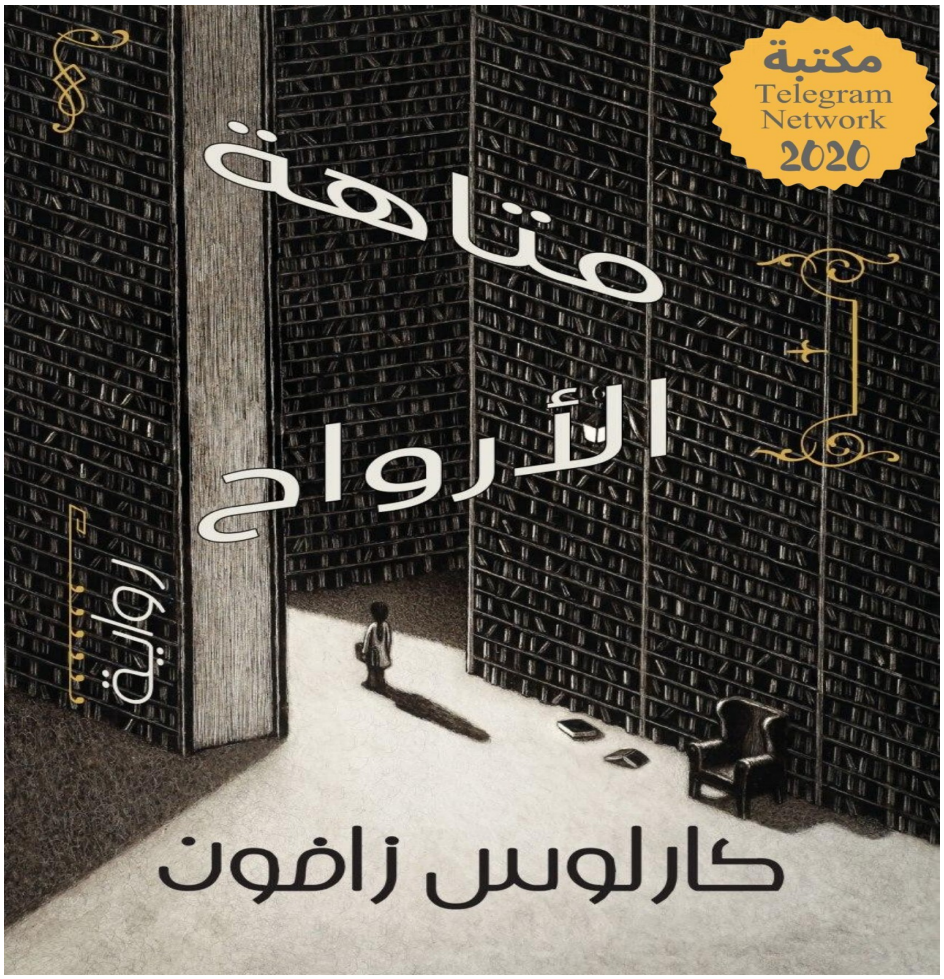
مكتبة
Telegram
Network
2020
متاهة
الأرواح
رواية
كارلوس زافون

مكتبة
Telegram Network
2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(متاهة الأرواح)

لـ « كارلوس رويث ثافون »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

طلال حسن- سوريا

عبدالرحمن عمر- الإمارات

تيسير عثمان -مصر

علياء عثمان - مصر

غدير الجهني - السعودية

محمد ماهر -مصر

طارق دردوري - الجزائر

آلاء - السعودية

السيد جواد محمد - البحرين

همام حمدان - السعودية

عبادة سهوان - سوريا

شمس الحياة -مصر

أيمن محمد - مصر

فتح الله الرحماوي - المغرب

حسين احمد - العراق

وائل – مصر

سيدعلي احمد خوجة – الجَزائِر

أمين الملحاني – اليمن

علي ابن بطوطة - المغرب

تصميم الغلاف:

محمد ماهر -مصر

مراجعة وتنسيق الكتروني:

أ/ماجدة علي علي - مصر

قاموا بعمل استثنائي:

تيسير عثمان -مصر

عبادة سهوان - سوريا

عبدالرحمن عمر- الإمارات

آلاء - السعودية

غدير الجهني - السعودية

محمد ماهر -مصر

فتح الله الرحماوي – المغرب

طارق دردوري - الجزائر

«بارك الله لكم في أعمالكم ورفع قدركم و شأنكم
وأمد الله في أعماركم وختم الله بالصالحات أعمالكم»

TELEGRAM
NETWORK

كارلوس زافون

متاهة الأرواح

رواية

ترجمة

معاوية عبد المجيد

مقبرة الكتب المنسيّة

يشكّل هذا الكتاب جزءًا من سلسلةٍ روائيّة متشابكةٍ داخل العوالم الأدبيّة لـ«مقبرة الكتب المنسيّة». ترتبط هذه الروايات بعضها ببعض عبْر شخصيّات ومواضيع متّصلة فيما بينها بالثيمات السرديّة، حتى لو كانت كلّ روايةٍ منها تُقدّم حكايةً مستقلةً ومكتفيةً بذاتها.

لذا فإنّه بإمكان القارئ أن يقرأ حلقات سلسلة «مقبرة الكتب المنسيّة» بشكلٍ منفصل، أو بغض النظر عن تسلسلها؛ ما سيمنحه فرصةً لاستكشاف هذه المتاهة وولوج ألغازها من دروبٍ مختلفة وأبواب متعدّدة، والتي ما إن تُحبَكَ معًا حتّى تقوده إلى قلب الحكاية.

ونُشير إلى ان كل الروايات شي من صنع الخيال، وأنّ الأجراء الأربعة من «مقبرة الكتب المنسيّة» ليست استثناءً، حتّى لو كانت مستلهَمةً من مدينة برشلونة في القرن العشرين. وفي حالاتٍ نادرة، تتكيَّف مظاهرُ بعض السيناريوهات وتسلسلُها الزمنّي، وبعضُ الظروف وبعضُ المنتجات، بما يتلاءم وضرورة المنطق السرديّ؛ بحيث إنّ فيرمين، على سبيل المثال، بوسعه أن يتذوّق سكاكر السوغوس المحبّبة إلى قلبه قُبَيل أعوام من انتشارها على نطاقٍ شعبيّ واسع؛ كما بإمكان بعض الشخصيّات أن تنزل تحت القبّة الكبرى لمحطة فرنسا.

(1)

في تلك الليلة، حلمتُ أنّي عائدٌ إلى مقبرة الكتب المنسيّة. كان عمري في المنام عشرة أعوام، وكنت أستيقظ مرَّة أخرى في غرفتي القديمة، وأنا أهجس بأنّني لم أعد أذكرُ وجهَ أمّي. وبحسب الطريقة التي تُدرَك فيها الأشياء في الحلم، كنت أعرف أنّ الذنب ذنبي وحدي، لأنّني لم أكن أستحقّ أن أتذكّر وجهها ولأنّني لم أكن قادرًا على إنصافها.

يدخل والدي بعد قليل، متوجِّسا من صراخي ولوعتي. يعانقني لكي يسلو عنّي، والدي الذي كان في الحلم ما يزال شابًا ولديه إجابة عن كل سؤال في هذا العالم. ثم نخرج من البيت عندما ترسم أولى خيوط الضوء مدينة برشلونة الغارقةً في بخار. يوصلني والدي إلى بوّابة البناية ليس إلّا، لسببٍ لا أفهمه؛ ويتركني كأنه يلمّح إلى أن تلك رحله ينبغي لي أن أبادر إليها بمفردي.

أباشر المشي، لكنّي أذكر أنّ حذائي وثيابي تُثقِلُ عليّ، بل وحتّى جلدي ثقيلٌ علىّ. فكلّ خطوةٍ تتطلّب جهدًا يفوق جهدّ الخطوة السابقة.

وحين أصل إلى لاس رامبلاس، يُخيّل إلي أنّ المدينة معلَّقة في لحظةٍ أبديّة. الناسُ متوقّفون كأنّهم متجمِّدون كالشخوص في صورةٍ فوتوغرافيّة. ثمّة حمامةً كانت تهمّ بالتحليق، فتسمّرتْ في محاولةٍ مرتبكةٍ لرفرفة جناحيها. وحبوبُ الطلع المنثور ثابتةُ في الهواء كنورٍ في غبار. وقطراتُ الماء في نافورة كاناليتاس تتلألأ في الفراغ لتبدو مثل طوقٍ من دموعٍ بلوريّة.

وكنت كمن يحاول المشي تحت الماء، أتمكن بمشقّةٍ من ولوج ذلك السحر الذي أطبق على برشلونة فتوقّف الزمنْ بها، إلى أن بلغتُ بوّابة مقبرة الكتب المنسيّة. أقف هناك على أعتابها منهكًا. لا أستطيع أن أفهم ماهيّة ذلك العبء اللامرئيّ الذي كنت أجرّه ورائي وكان بدوره يُصعَب على التقدّم. أمسكتُ بمِطرق الباب وحركتُه غير مرّة، وما من أحدٍ يأتي ليفتح لي. رحتُ أطرق بقبضتيّ على خشب تلك البوّابة الكبيرة، لكن الحارس تجاهل توسّلاتي. أوقعني اليأس على ركبتيّ.

حتى إذا تأملتُ اللعنة التي جررتُها خلفي، امتلأتُ يقينًا رهيبًا بأنّ المدينة ومصيري سيبقيان مجمّدّين إلى الأبد ضمن ذلك المشهد المسحور، وأنّني لن أتمكّن من تذكّر وجه أمّي إطلاقًا.

وحينذاك اكتشفتُ وجوده، وكنت على وشك فقدان الأمل. قطعةُ معدنيَّة مخبأةٌ في جيب السترة الداخليّ المطرّز بخيطٍ أزرقَ بحروف اسمي الأولى. مفتاح. منذ متى كان هناك ولا أعرف عنه شيئًا؟ - تساءلتُ. لقد هرأه الصدأ وبات أثقل من ضميري. حملتُ المفتاح بكلتا يدي بمشقة حتى وصلتُ به إلى القفل. عليّ أن أقاوم حتى الرمق الأخير كي أدوّره فيه. وعندما ظننتُ أنني لن أستطيع فعلها البتّة، تراخي المزلاج وانفتحت البوّابة شيئا فشيئًا نحو الداخل.

ممر ملتوٍ يتوغّل في قلب المبنى القديم، مرقَطًا بسلسلةٍ من الشموع المشتعلة التي تشير إلى الطريق. كنت أغرق في الظلمات وأشعر بالباب ينغلق خلف ظهري. فتذكرتُ حينها ذلك الممرّ زاخِرَ الجدران

برسوم الملائكة والمخلوقات الخرافيّة تتحرّي من خلف ستار الظل لكأنّها تختلج عند مروري بجانبها. سرتُ في الممرّ حتى وصلتُ تحت قوسٍ ينفتح على طاقٍ كبيرٍ فتوقفتُ عند العتبة. كانت المتاهة تتبدّى أمام ناظريّ في سرابٍ سرمديّ. لولبٌ من سلالمَ وأنفاقٍ وجسورَ وأقواسٍ، تتشابك في مدينةٍ خالدة بُنُيت بكلّ كتب الارض، تتعالى نحو شاهقِ القُبّة الزجاجية الهائلة.

والدتي تنتظرني هناك، في أسفل. كانت مستلقية في تابوتٍ مفتوح، يداها معقودتان على صدرها، وبشرتها شاحبة كالكفن الأبيض الذي يلفّ جسدها. شفتاها مؤصدتان، وعيناها مغمضتان. ترقد بلا حراكٍ في سلام الغياب الذي تنعم به الأرواحُ الراحلة. كنت أقرّب يدي كي ألامس وجهها. فأحسستُ بأنه باردٌ كالرخام. لكنها حينذاك فتحت عينيها وحدّقت إلي بنظرةٍ مسحورةٍ بالذكريات. وإذ حرّكتْ شفتيها الغامقتين وتكلّمتْ، بدت نبرة صوتها مدوّية كقطار شحنٍ يدهسني ويقتلعني من على الأرض، ليقذفني إلى الهواء ويتركني متأرجحًا في سقطةٍ لا تنتهي بينما يميع العالمُ من صدى كلماتها:

عليك أن تروي الحقيقة يا دانيال.

أفقتُ جَفِلًا في ظلام غرفة النوم، أتصبّب عرقًا، فوجدتُ جسد بيا مستلقيًا بجانبي. فعانقتني وحنت على وجهي.

- مجدَّدا؟ - غمغمتْ.

أومأتُ والتقطتُ نفَسًا عميقًا.

- كنت تتحدّث. في نومك.

- ماذا كنتُ أقول؟

- كلام غير مفهوم. - كذبت بيا.

نظرتُ إليها فتوهمتُ بأنها تبتسم شفقةً عليّ، أم إنّه مجرد تعبير عن الصبر.

- نم الآن. ما زالت هناك ساعة ونصف قبل أن يرنّ المنبّه، واليوم هو الثلاثاء.

يوم الثلاثاء يعني أنّه دوري في اصطحاب خوليان إلى المدرسة.

أغمضتُ عينيّ وتظاهرتُ بأنّني أغفو. وعندما فتحتُهما، بعد مرور دقيقتين، وجدتُ وجه بيا يتربّص بي.

- ما بكِ؟ - سألتُها.

انحنت إليّ ورسمت قبلًة ناعمةً على شفتي. قبلةٌ بنكهة القِرفة.

- يجافيني النعاسُ أنا أيضًا. - ألمحتْ.

رحتُ أعرّيها برفق. وكنت سأنزع اللحاف وأرميه أرضا عندما سمعتُ خطواتٍ ناعمةً عند عتبة الغرفة. أوقفتْ بيا توغُّل يدي اليسرى بين فخذيها وارتفعتْ مستندةً إلى مرفقيها.

- ماذا وراءك يا عزيزي؟

كان خوليان الصغير يراقبنا عند الباب وقد استحال ظلاٌ من حياءٍ وارتباك.

- هناك أحدٌ ما في غرفتي.

- غمغم.

تنهدت بيا وبسطت ذراعيها إليه. فتعجَّل الصغيرُ ليلتجئ في أحضان أمّه، فما كان منّي إلا أن رفضتُ أيَّ أمل يُعقد في الخطيئة.

- الأمير القرمزيّ؟

- سألته بيا.

فأومأ خوليان بنعم، متأثرا.

- سيذهب بابا حالًا إلى غرفتك ليطرده ركلًا، حتى لا يعود أبدًا.

رماني ابنُنا بنظرةٍ يائسة. فما النفع من والدٍ لا يبادر إلى خوض مُهمِّات بطولية من هذا النوع؟ ابتسمتُ له وغمزتُ بعين.

- ركلًا.

- ردَّدت الكلمة بكلّ ما تيسّر لي من غضبٍ لا يضاهيه الغضب.

سمح خوليان لنفسه بشبه ابتسامة. وقفزتُ من على السرير وسرتُ في الممرّ نحو غرفته. تُذكِّرُني غرفتُه بتلك التي كانت غرفتي، الموجودة تحت عدّة طوابق في أسفل، حتى إنّي تساءلتُ برهَةً عمّا إذا كنتُ ما أزال سجينِ حلمي ذاك. جلستُ بجانبه على السرير وأضأتُ المصباح الذي على الدُّرج. كان خوليان يعيش محاطًا بالألعاب التي ورث بعضَها منّي، والكتب على وجه الخصوص. وسرعان ما وجدتُ المشتبه به مختبئًا تحت المخدّة. حملتُ ذلك الكتاب المجلد بالأسود وفتحتُه عند الصفحة الأولى.

El Laberinto de los Espíritus VII

Ariadna y el Príncipe Escarlata

Texto e ilustraciones de Víctor Mataix

متاهة الأرواح VII

أريادنا والأمير القرمزيّ

النصّ والرسوم لِـ فكتور ماتايكس

احترتُ أين أخبّئ تلك الكتب. فمهما حاولتُ ترقية عبقريّتي في إيجاد مخابئ جديدة، توصّل ابني إليها بسهولةٍ كأنّه يتتّبع حاسّة الشمّ. تصفّحت الكتاب سريعًا فانقضّت عليّ الذكريات مجدَّدا.

وعندما عدت إلي غرفتي، بعد أن نفيتَ الكتاب مرَّة أخرى إلى أعلى خزانة المطبخ - حيث كنت متيقّنا أنّ ابني سيستدلّ على مكانه عاجلًا أم آجلًا - وجدتُ خوليان بين ذراعَي والدته. استسلم كلاهما للنعاس. توقّفت أراقبهما عند العتبة، محميًا بالظلام. أصغيتُ إلى أنفاسهما العميقة وتساءلتُ عمّا فعله الرجلُ الأسعد حظّا في العالم لكي يستحق هذا البخت المبهر. نظرتُ إليهما نائمين متّحدّين، لا يأبهان لهذه الحياة، ولم أستطع ألا أن أتذكّر الخوف الذي اعتراني حين رأيتهما متعانقين هكذا في المرة الأولى.

(2)

لم أروِ هذه القصة لأحدٍ من قبل، ففي الليلة التي ولد فيها ابني خوليان، ونظرتُ إليه للمرّة الأولى وهو في أحضان أمّه، غارقًا في راحة البال التي يتفرّد بها أولئك الذين ما زالوا يجهلون المكان الرهيب الذي وصلوا إليه، تملّكتني رغبةً في الركض وعدم التوقّف حتى بلوغ آخر العالم. كنت ما أزال فتيًّا في تلك الآونة، وما تزال الحياة كبيرةً في عيني بلا شكّ، لكنّني - رغم كلّ الأعذار التي قد أستطيع تقديمها - ما زلت أتذوّق الخزي الذي خلفتْه أعراضُ الجبن حين استحوذ عليّ يومها، ولأنّني لم أمتلك الشجاعة للاعتراف بجبني لمن كان يُلزِمُني بذلك، رغم مرور كلّ تلك السنوات.

إنّ الذكرياتِ التي تدفنها في الكتمان هي الذكرياتُ نفسُها التي لا تكفّ عن مطاردتك أبدًا. والذكرى التي تؤرّقني كثيرًا هي لغرفةٍ ذات سقوفٍ بلا نهاية، تهبّ فيها أنفاسُ ضوءٍ مغبرٍّ يتقطّر من مصباحٍ يرسم أطرافَ سريرٍ ترقد عليه فتاةٌ أتمّت عامها السابع عشر توًّا ورضيعُها على صدرها. عندما استعادت بيا بعضًا من وعيها، ورفعتْ أنظارها وابتسمت لي، امتلأت عيناي بالدموع. جثمتُ على ركبتيّ بجانب ذلك المرقد وأغرقتُ وجهي في حضنها. أحسستُ بيدها تأخذ بيدي وتضغط عليها بما تبقّى لها من قوى.

- لا تخفْ! - همستْ.

لكنني كنت خائفًا. وفي لحظةٍ طغى فيها الخزي حتّى ما انفكّ يلاحقني منذئذ، وددتُ لو أنّني كنت في أي مكانٍ آخر عدا تلك الغرفة، ووددتُ لو كنتُ شخصًا آخر. كان فيرمين يتابع المشهد من عند الباب، وكعادته لا بدّ أنّه قرأ أفكاري قبل أن اقولها. فما كدتُ أفتح فمي حتّى أمسكني من ذراعي، وجرّني إلى الممرّ، تاركًا بيا والطفل بصحبة خطيبته الرائعة برناردا. وكان الممرّ ممشى طويلًا وباتر الحدّ تغوص نهاياتُه في الظلام.

- هل أنت حيّ يا دانيال؟

- سألني.

فأومأتُ بهزّة متثاقلة بينما كنت أحاول تعويض الأنفاس التي سقطت منّي أثناء المشي في الممرّ. وحين تهيُّأت للعودة إلى الغرفة، استبقاني فيرمين لديه.

- انظر، عندما تقرّر الدخول إلى هناك في المرّة القادمة، عليك أن تفعلها بمزيدٍ من الشجاعة. لحسن الحظّ أنّ السيّدة بيا لم تفقد كامل قواها، ولا بدّ أنّها لم تنتبه إلى شيء. والآن، إن سمحتَ لي بتقديم النصح، أعتقد أنّنا في أمسّ الحاجة إلى استنشاق هواءٍ منعشٍ يخلّصنا من هذا الفزع كي نبادر إلى الفرصة الثانية بتألقٍ أكبر.

وبدون أن ينتظر إجابة، جرّني فيرمين من ذراعي واقتادني عبر الممرّ إلى سلّم أفضى بنا عند سياج شرفةٍ معلقةٍ بين برشلونة والسماء.

ثمة نسمة باردةٌ تعضّ الأجواء عن طيب خاطر، حطّت على وجهي.

- أغمضْ عينيك واستنشق ثلاث مرّات. خذ وقتك، كما لو أنّ رئتيك في حذائك. - نصحني فيرمين - إنّها حيلةٌ تعلّمتها من راهبٍ تبتيّ وغد، عرفتُه عندما كنت أعمل بمكتب الاستقبال والمحاسبة في بيت دعارة صغير عند المرفأ. لم يكن يعلم شيئًا، عديم الحياء ذاك...

تنفُّست بعمق في المرّات الثلاث الموصوفة، وثلاث مرّات إضافيّة، مسبَّحا بنِعَم الهواء النقيّ التي وعد بها فيرمين ومعلّمه التبنيّ.

شعرتُ بأن رأسي يتعرّض لدوخةٍ بسيطة، فإذا بفيرمين يسندني.

- لن يصيبك الجامود الآن، أليس كذلك؟ اصح، فالوضع يتطلّب الهدوء لا البلادة.

فتحتُ عينيّ لأجِد شوارع خاوية ومدينة غافية تحت قدميّ. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحًا، فيما تغطّ مستشفى سان بابلو في سباتٍ من ظلام، بينما كانت قلعتها المكونة من قببٍ وأبراجَ وأقواس، ترسم لوحاتٍ فسيفسائيّة تحت الضباب المتناثر من قمّة جبل كارميلو. تأمّلت صامتًا حيادَ برشلونة الذي لا يُرَى إلا من شرفات المستشفيات، مدينة لا تلتفت إلى مخاوف وآمال الناظر إليها، وتركتُ البردَ يتغلغل في عظامي لعلّه يصفّي رؤيتي.

- أنت تفكّر في أنّي جبان.

- قلت.

واجه فيرمين نظرتي وشدّ كتفيه لامباليًا.

- لا تهوِّل الأمر. أفكّر بالأحرى في أنّ ضغطك منخفض واضطرابك مرتفع. لا يغيّر هذا في شيء، لكنّه يغفيك من المسؤوليّات ويجنّبك المقالب. ولحسن الحظّ أنّ الحلّ عندي.

فكّ أزرار سترته المطريّة، التي كانت مثل بازارٍ سحيقٍ بما تحتويه من أعاجيبَ تجعلها أشبَه بدكّانة عطّارٍ محمولة، أو متحفٍ لعرض الغرائب، أو مخزنًا لاستيداع النفائس الفنيّة واللّقى الأثريّة المستخرجة من أسواقٍ رخيصة ومزاداتٍ علنيّة وضيعة.

- لن أفهم أبدًا كيف تستطيع حمل كلّ هذا القدْر من الخردة وسقط المتاع على كاهلك يا فيرمين.

- فيزياء متقدّمة. طالما أنّ علم التشريح يؤيّد أنّ جسدي النحيل مكوَّن في معظمه من غضاريفَ وألياف عضليّة، فإنّ هذه الترسانة الصغيرة سترسّخ قدميَّ لمصلحة الجاذبيّة الأرضيّة بما يتيح لي إرساءً مكينًا يقاوم هوجاءَ الريح وعُتَّيَ الأمواج. وإيّاك أن تتوهّم أنّك قادرٌ بسهولةٍ على دحري بتعليقاتٍ تتبوّلها خارج الإناء، لأنّنا لم نصعد حتّى هنا لتبادل البطاقات أو إضاعة الوقت.

بعد إدلائه بذلك التحذير، أخرَجَ فيرمين من أحد جيوبه المتعدّدة قنُّينة من التَنَك وأخذ يفكّ سدّادتها. تنشَّق محتواها كأنّه يُلفحُ بعطور الجنّة وابتسم مستحسنًا. ثمّ أعطاني القنّينة وهزّ رأسه وهو ينظر في عينيّ بوقار.

- اشرب الآن وإلا ندمتَ بقيّة عمرك.

وافقتُ على مضض.

- ما هذا؟ له نكهة الديناميت...

- هراء. إنّه مجرّد كوكتيل، الغاية منه إحياء الموتى والأولاد المتخوّفين من تحمُّل المسؤوليّات التي يكلّفهم بها القدر. هذا الكوكتيل عبارة عن خلطة عظيمة من اختراعي، على أسس بعض الخمور المقطّرة واليانسون البادلونّي ممزوجة بكميّةٍ من البراندي الشرس الذي أبتاعه من الغجريّ الأحول صاحب كشك العَرَق، وبلمسةٍ أخيرة من قطرات خمر الراتافيا وكحول مونتسيرات لِدمغه بطابع الكروم الكاتالانيّة الأصيلة.

- يا أمَّ الربّ!

- هيّا، فهذا المشروب يبيِّن مَن هو المقدام ومَن هو المتخاذل.

تجرَّعْ دفعةً واحدة، كما لو كنتَ قائد كتيبةٍ يقتحم مأدبة زفاف.

أطعتُه ورشفتُ من ذلك الخليط الجهنَّميّ الذي كان بمذاق البنزين المُطعَّم بالسُكّر. أشعل المشروبُ أحشائي، وقبل أن أتمكّن من استعادة وعيي أشار إليّ فيرمين بإعادة العمليّة. لم أستجب للاعتراضات والزلزال المعويّة، فتجرُّعت دفقةً أخرى ممتنّا للتخدير والتجهُّم اللذين أمّنهما لي مشروبُ البهائم هذا.

- كيف الحال؟ - سأل فيرمين - أفضل، أليس كذلك؟ هذه حلوى الأبطال.

أومأتُ مقتنعًا، وأنا أنفث نارًا وأرخي باقة القميص. فاغتنم فيرمين الفرصة ليشرب جرعةً من مزيجه ثمّ أعاد القنينة إلى غور سترته.

- لا شيء يضاهي الكيمياء في فنون الإحياء. ولكنْ، لا تتعلّقْ بالطريقة، فالمشروب الروحّي مثل سمّ الفئران، ومثل السخاء. كلّما زدت منه قلّ تأثيره.

- اطمئنّ!

أشار فيرمين إلى السيجارين اللذين ينتان من جيبٍ آخرَ في السترة، لكته هزّ رأسه وغمز بعين.

- لقد أخبأنّهما لهذا اليوم، سيجارّين من علامة كوبيبا. نهبتُهما من نائب والد زوجتي مستقبلًا، الدون غوستابو برسلوه، وهو يوشك على الموت، لكنّي أرى أن نحفظهما لمناسبةٍ أخرى لأنك لا تبدو لي في أوج صحّتك، ولا يجوز أن نجعل المولود يتيمًا في يوم ولادته.

ربّت فيرمين على كتفي برفق، ومرّر بضع لحظات، مانحًا عطور منتجه وقتها لتستشري في دمائي، وغمائم الطمأنينة الإثيليّة تغطّي إحساس الفزع الأصمّ الذي كان يجتاحني. وما إن لاحظ طبقه زجاجيَّة تتشكل في نظراتي، وحدقتاي تتوسّعان إيذانًا بغيابٍ عام للوعي، حتّى انطلق بخطبة لا شكّ في أنه كان يُعدّها طوال الليل.

- صديقي دانيال، قضى ربُك، أو من ينوب عنه في حال غيابه، أن تكون الأبوّة وإنجاب الأولاد في هذه الحياة أسهل من الحصول على رخصة قيادة السيارة. وإنّ هذه الحالة المريرة جدًا تُترجم على أرض الواقع بأن عددًا هائلا من الحمقى والأفظاظ والبُلَهاء يعتبرون أنفسهم مخوَّلين للإنجاب، ولأنّهم لا همّ لهم سوى التباهي بميداليّة الأبوّة يدمّرون هؤلاء الأولاد المنحوسين إلى الأبد والذين أنجبوهم بالعار. وبناءً عليه، وبما أني أستمدّ شرعيّة التحدُّث من كوني أنا أيضًا أتهيّا لتحبيل برناردا حبيبتي، عندما تشاء الغدّة التناسليّة ويأذن بذلك الزواجُ المقدُّس، التي تعتبره هي شرطًا لا حلّ من دونه، كي أستطيع اللحاق بركبك يا عزيزي في هذه الرحلة نحو المسؤولية العظمى المسمَّاة بالأبوّة، فإني يجب

أن أؤكد، بل أؤكد أنك يا دانيال سيمبيري خيسبرت، ايّها المبتدئ في مستهل سنّ الرشد، وعلى الرغم من انعدام ثقتك بنفسك الآن، وعدم اقتناعك بأنك أصبحتَ ربَّ أسرةٍ أو تكاد، أؤكد أنّك ستكون والدًا نموذجيًا، مع أنّك غرّ وشبهُ ساذجٍ بشكلٍ عامّ.

وإذ شارفت الخطبةُ المسهبة على منتصفها، كانت عيناي قد جحظتا، بسبب مفعول الخلطة الانفجاريّة أو بسبب المفرقعات النحويّة التي أطلقها صديقي الطيّب.

- فيرمين، لستُ متأكدًا من فهم ما قلته.

تنهَّد.

- كنت أقصد أنّني أعرف جيّدا أنّك في هذه اللحظات تكاد تفقد السيطرة على عضلتك العاصرة، وأنّ هذا الحِمّل كبيرٌ عليك يا دانيال، ولكن أردّد ما قالته لك زوجتك، تلك المرأة المعظمة: لا ينبغي لك أن تخاف. لأنّ الأطفال المدلّلين، ابنك على الأقلّ، لا يولدون إلاّ إذا كان قوت يومهم مضمونًا؛ ولأنّ المرء إذا كان لديه أدني حسَّ بالحشمة والأخلاق، وبعض النقود في جيبه أيضًا، يجد وسيلةً لئلا يدمّر حياة أولاده ولكي يكون أبًا لا يخجلون من نَسَبهم إليه أبدًا.

رمقتُ ذلك الرجل النحيل الذي كان ليضحّي بروحه من أجلي، والذي كانت لديه دومًا كلمة، أو عشرة آلاف كلمة، ينقذني بها من كلّ المآزق، بما فيها ميولي آنذاك إلى الخمول الوجوديّ.

- ليتها كانت سهلةً كما تصفها يا فيرمين.

- لا شيءَ يستحق العناء في هذه الحياة سهلٌ يا دانيال. كنت في شبابي أفكّر أنّني إذا أردتُ الإبحار في هذا العالم سيكون كافيًا أن أتعلّم ثلاثة أشياء جيِّدا. أوّلًا: ربط خيوط الحذاء. ثانيًا: تعرية امرأة بدقّة. وثالثا: القراءة للتمتُّع يوميًا ببعض الصفحات المكتوبة بذكاءٍ ومهارة. كنت أظنّ أن رجلًا راسخَ القدمين في الأرض، وقادرًا على المداعبة وتعلُّم موسيقى الكلمات والاستماع إليها، يعيش عمرًا أطول، بل يعيش حياته بشكلٍ أفضل. لكنّ السنوات علّمتني أنّ ذلك لا يكفي، وأنّ الحياة أحيانًا تعطينا فرصةً للتطلّع إلى أن نكون أكثر من مجرّد حيوانٍ يمشي على قدمين، يأكل ويتغوَّط ويشغل مساحةٌ آنيَّة على ظهر الكوكب. واليوم شاء القدرُ، في غفلته اللانهائيّة، أن يهبك هذه الفرصة.

أومأتُ غيرَ مقتنعٍ تمامًا.

- وماذا لو كنتُ دون المستوى؟

- دانيال، إن كنّا أنا وأنت نتشابه في شيء، فهو أنّ الحظّ أنعم على كلٍّ منا بنساءٍ لا نستحقهنّ. من الواضح والجليّ أنّ قيمة هذه الرحلة والمؤونة اللازمة ستكون لزامًا عليهنّ، وأنّ دورنا سيقتصر على عدم إحباطهنّ. ما قولك؟

- قولي إني أتمنّى أن أصدّقك ببساطة، لكني أستصعب ذلك.

هز فيرمين رأسه، مقلّلا من شأن المسألة.

- لا عليك! هذه أعراض الخلطة الكحوليّة التي أبلعتُك إيّاها، فتشوّش موقفُك الضعيف من بلاغتي الرفيعة. لكنّك تعلم أنّني في هذا المجال قد قطعتُ أكثر منك أشواطًا وأنّني على صوابٍ كالعادة أكثر

من عربةٍ مليئةٍ بالقدّيسين.

- لا أشكّ في هذا.

خيرٌ لك، وإلاّ خسرتَ عند أوّل هجمة. هل تثق بي؟

- بالتأكيد يا فيرمين. فأنت تعلم أنّني لأذهبنّ معك حتّى نهاية العالم.

- اسمعْ منّي إذن، وثق بنفسك أيضًا، مثلما أفعل أنا.

نظرتُ في عينيه وأومأتُ ببطء.

- هل استعدتَ الوعي؟

اعتقد ذلك.

- إذن، جَمِّع هذا الوجه الحزين، وتأكّدْ من أنّ كتلتك الخصويّة في موضعها المناسب، وعُدْ إلى الغرفة لمعانقة السيّدة بيا والولد باعتبارك الرجل الذي صنعه كلٌّ منهما توًّا. لأنّني لا أشكّ في أنّ الفتى الذي تشرُّفت بمعرفته تحت قناطر الساحة الملكية ذات مساء قبل أعوام، والذي شغل بالي على سلامته منذئذٍ، لا أشكّ في أنه كفءٌ لبدء هذه المغامرة. فأمامنا الكثير من القصص لنعيشها يا دانيال. وما ينتظرنا لن يكون لعبةً للأطفال. هل أنت معي؟ حتى نهاية هذا العالم، والتي قد تكون خلف تلك الزاوية أيضًا؟

لم يخطر في ذهني إلّا أنّ ألفّه في عناق.

- ماذا عساي فاعلٌ من دونك يا فيرمين؟

- كنت ستخطئ كثيرًا. وطالما أنّنا بتنا نتّبع التدابير الوقائيّة ذاتها، ضع في الحسبان أن أحد التأثيرات الجانبية الأكثر اعتياديٌّة جرّاء عسر هضم الخلطة التي تشرَّبتَها للتوّ هو ارتخاء الحياء، مقترنًا باهتياج معيِّن للعضلة العاطفية. لذا، عندما ستراك السيّدة بيا الآن داخلًا غرفتها، ركِّزْ أنظارك في عينيها بحيث تعرف أنّك تحبّها حقًّا.

- هي تعرف ذلك مسبقًا.

هز فيرمين رأسه نافد الصبر.

- اسمع منّي. - قال ضاغطًا - إن كنتَ تخجل، لا داعي لقوله، فنحن الرجال خُلِقنا هكذا وهرمون التستوستيرون لا يشجِّع على الشعر.

إلّا أنّ السيّدة بيا مضطرّة لسماعه. فهذه الأشياء، ينبغي أن تقولها بل وأن تبرهن على صحّتها أيضا. لا مرَّة واحدةً كلّما توفّي حبرٌ أعظم، بل كلّ يوم.

- سأحاول.

افعل ما هو أفضل من المحاولة يا دانيال.

وهكذا، إذ حُرِمتُ على يدي فيرمين وبفضله من ملجأ المراهقة الأبديّ والهشّ، اتجهتُ نحو الغرفة التي كان ينتظرني فيها مصيري.

وبعد أعوام طويلة، كانت ذكرى تلك الليلة ستعاود ذاكرتي عندما كنت ألتجئ ليلًا إلى مستودع المكتبة القديمة في شارع سانتا آنا، في محاولةٍ جديدةٍ لمواجهة تلك الصفحة البيضاء دون أن أعرف حتّى نقطة الصّفر التي سأبدأ منها كي أفسّر لنفسي أولًا الحكاية الحقيقية لعائلتي، وكنت قد كرُّست لهذا الأمر شهورًا أو سنواتٍ، لكنّني لم أفلح يومًا في كتابة سطرٍ واحد يُعوّل عليه.

وقرّر فيرمين أن يقوم بزيارةٍ ليليّة، إذ اغتنم الأرق الذي أصابه إزاء عسر هضم لنصف كيلو من وجبة الشيشارونيس الدسمة. وعندما رآني أحتَضَر أو أكاد أمام صفحةٍ بيضاء، لا سلاح في يدي عدا قلم الحبر الذي كان يقطر مثل سيارّة مستعملة، جلس بجانبي وعاين ركام الأوراق المجمَّدة والمرميّة عند قدميّ.

- لا تغضبْ منّي يا دانيال، ولكنْ هل لديك أدنى فكرة عمّا تفعله؟

- لا.

- أقررتُ

- ربّما لو جرُّبت استعمال آلةٍ كاتبة لَتَغيْرَ كلُّ شيء. تقول الدعاية إنّ الأندروود هي خيار المحترفين.

قيّم فيرمين ما تقترحه الدعاية، لكنّه هزّ رأسه نافيًا بشدّة.

- ثمّة بحرٌ واسع بين التنضيد على الآلة الكاتبة والكتابة بالقلم.

- شكرًا على التشجيع يا فيرمين. ولكن، ما الذي تفعله أنت في هذه الأرجاء في ساعة متأخّرة؟

جَسّ فيرمين بطنه.

- عسر هضم خنزيرٍ صغير بأكمله، مقليًا، زَلزلَ معدتي.

اتريد قليلا من البيكربونات؟

- لا أفضَّل ذلك، لأنها تصيبني بانتصابٍ ليليّ، عذرًا على الكلمة، وعندها لن أستطيع إغماض عينيّ جدًّيا.

تركتُ قلمي ومحاولتي المتكرّرة في كتابة سطرٍ واحدٍ صالحٍ للاستعمال، ورحتُ أبحث عن نظرات صديقي.

- هل الوضع هنا على ما يرام يا دانيال؟ أقصد، بصرف النظر عن حملتك العقيمة ضدّ فنّ السرد...

شددتُ كتفيّ لا مباليًا. لقد ظهر فيرمين في أوانه كالعادة، ليشرّف نفسه بوصفه مُنزَّلا من السماء.

- لا أعرف كيف أسألك عن شيءٍ، ما انفكّ يطنّ في رأسي منذ أمد بعيد. - ارتجلتُ.

غطّي فمه بيدٍ، وأطلق جشأة مكبوتة لكنّها مسموعة.

- إن كان ذلك الشيء متعلّقًا بمسائل تخصّ المخدع، خذ راحتك واسأل بلا حياء. أذكرك بأنّني في هذا المجال طبيبٌ بشهادة.

- لا، لا تخصّ المخدع.

- هذا يؤسفني، فلديّ معلوماتٌ طازجة عن حيلٍ جديدةٍ تجعلك...

- فيرمين - قاطعتُ كلامه - هل تعتقد أنّني عشتُ الحياة التي كان عليَّ أن أعيشها، وهل كنتُ كفؤا لها؟

فتح فيرمين شدقه متفاجئًا. أخفض عينيه وتنهَّد.

- لا تقل لي إنّ تساؤلاتك هذه متعلِّقة بما تقاسيه حاليًا من استعصاء تقمُّص روح بلزاك. بحوثٌ روحانية وباقي ما تبقّى و...

- أليس المرء يكتب لكي يفهم نفسه والعالم بشكل أفضل؟

- هذا إذا كان يعرف ماذا يفعل، وتلك ليست حالتك...

- انت أسوأ مَن يعترف المرء على يديه يا فيرمين. ساعدني قليلًا.

- ظننتُ أنك تحاول أن تصبح روائيًّا، لا دَعِيَّ تقوى.

- قل لي الحقيقة. وأنت الذي تعرفني مذ كنتُ صغيرًا. هل خيَّبتُ آمالك؟ هل كنتُ دانيال الذي توقعتَه دائمًا؟ دانيال الذي كانت أمّي ستفتخر به؟ قل لي الحقيقة.

رفع فيرمين عينيه إلى السماء.

- الحقيقة هي الترَّهات التي يقولها الناسُ حينما يتوهّمون أنّهم على درايةٍ بشي ما يا دانيال. فأنا أعرف الكثير من الحقائق، بقدر ما أعرف عن قياس حمّالة صدر تلك الأنثى الخارقة، ذات النهدين المدبَّبين والاسم اللاسع، التي شاهدناها أمس الأوّل في سينما كابيتول.

- كيم نوفاك.

- حدِّدت.

- فليمجَّدها الربُّ وقوانينُ الجاذبيّة. لا، لم تخيَّب آمالي يا دانيال. على الإطلاق. فأنت رجلٌ شهمٌ وصديقٌ وفيّ. وإن أردتَ معرفة رأيي، أجل، أعتقد أنّ المرحومة إيزابيلا والدتَك كانت ستفتخر بك وستراك ابنًا صالحًا.

- ولكن ليس روائيًا ناجحًا.

- ابتسمتُ.

- انظر يا دانيال، أنت تمتلك من سمات الروائيّ بقدر ما أمتلك أنا من سمات الراهب الدومينيكانيّ. وأنت تعرف ذلك. فلا قلم الحبر ولا آلة الأندروود قادران على تغيير هذه الحقيقة تحت ضوء الشمس.

تنهدتُ وغصتُ في صمت طويل. كان فيرمين يراقبني متحيِّرا.

- أتعلم ماذا يا دانيال؟ أفكّر حقًّا في أنّني، برغم كلّ الذي قاسيناه معًا، ما أزال ذاك المنحوس المسكين الذي وجدتَه ملقًى على قارعة الطريق وحملتَه إلى بيتك من باب الرأفة، كما أنّك ما تزال ذاك الفتى الأعزل الذي يهيم على وجهه في الأرض، يتعثَّر في ألغاز لا حصر لها، ويظنّ أنّه إذا حلّها، بأعجوبة محض، سيستعيد وجه والدته وذكرى الحقيقة التي سرقتها منه الحياةُ.

قيَّمتَ كلماته التي أصابت هدفها بدقة.

- وهل الخطبُ جللٌ إذا كان على هذا النحو؟

- كان من الممكن أن يغدو أسوأ. ربما تصبح روائيًّا، مثل صديقك كاراكس.

- ربما ينبغي لي حقًا أن أبحث عن كاراكس وأقنعه بكتابة هذه الحكاية بيده.

- ركَّزتُ

- حكايتنا.

- هذا ما يقوله ابنك خوليان أحيانًا.

نظرتُ إليه شزرًا.

- ما الذي يقوله خوليان؟ ما الذي يعرفه خوليان عن كاراكس؟ هل رويتَ على مسامع ابني عن كاراكس؟

اتخذ فيرمين التعابير الرسميّة للخروف المذبوح التي لطالما التجأ إليها.

- أنا؟

- ماذا قلتَ له؟

تأفَّف فيرمين، مهوِّنًا من شأن الحدث.

- توافه. ما يشبه الملاحظات عديمة الجدوى أسفل الصفحة.

الحال أن للولد ذكاءً ثاقبًا وإمكاناتٍ استقصائيَّة لا يستهان بها، ومن الواضح أنّه يلتقط كلّ شيء بسهولة ويربط الخيوط بعضها ببعض. ليس ذنبي إن كان الولد لبيبًا إلى أبعد الحدود. ومن الجليّ أنه لم يرث النباهة منك.

- يا أمَّ الربّ... وهل بيا تعلم أنك تحدَّثت عن كاراكس مع الصغير؟

-أنا لا اتدخّل في حياتك الزوجيّة. لكنّني اشكّ في وجود شيْ لا تعرفه السيّدة بيا، أو لا تدركه بحدسها على الأقلّ.

- إنّي أمنعك منعًا باتًّا من التحدّث مع ابني عن كاراكس يا فيرمين.

حمل يديه إلى صدره وأومأ موافقًا برباطة جأش

- ها قد خيَّطتُ فمي. حُقَتْ عليّ لعنةُ العار السوداءُ إن أنا أخللتُ بنذر الصمت المقدَّس في لحظة هوانٍ وتشويش.

- وبالمناسبة، لا تذكرْ أمامه حتّى كيم نوفاك، فأنا أعرفك جيِّدا.

- أمّا في هذه الحالة، فإنّي بريٌ كالحَمَل الذي يمحو آثام العالم، لأنّ صغيرك هو الذي يفتح هذا الموضوع، فهو ليس غبيّا أبدًا.

- أنت مستحيل يا فيرمين.

- أقبل سهامك الظالمة بكلِّ تفانٍ لأنّني أعلم أنّ ما يحرَّضها هو خيبتك من عبقريّتك البائسة. ضع كاراكس جانبًا، هل لدى سيادتكم أسماء أخرى تودّون إضافتها إلى القائمة السوداء لغير المرحَّب بذِكرهم؟

باكونين؟ إستريلا كاسترو؟

- لِمَ لا تذهب إلى النوم وتتركني في سلام يا فيرمين؟

- كيف لي أن أتركك بمفردك هنا في مواجهة المخاطر؟ انسَ الأمر، ثمّة ضرورةً على الأقل لراشدٍ واحدٍ سويِّ الذهن بين الجمهور.

تفحَصَ فيرمين القلم وكومة الأوراق البيضاء التي تنتظر هناك على المنضدة، وهو يقيِّم تلك الأدوات مسحورًا بها كما لو أنّها عُدّة أجهزة جراحيّة.

- هل لديك فكرة عن كيفيّة البدء بهذا المشروع؟

- لا. كنت أفكّر في الأمر عندما وصلتَ وأخذتَ تهذر بفارغ الكلام.

- هراء. من دوني، لن تستطيع حتّى كتابة قائمة التسوُّق.

اقتنع في النهاية وشمَّر عن ساعديه لأداء الوظيفة الشاقّة التي تنتظرنا. جلس على كرسيٍّ بجانبي وراح يحدّق إليّ بأنظاره المكثّفة كأنّنا مثل أولئك الذين يتفاهمون بلا كلمات.

- بمناسبة الحديث عن القوائم: انظر، أنا في شؤون الروائيّين أفقه أقلّ ممّا أفقهه في الحِرَف اليدويّة وطريقة استعمال حزام الناسك. لكنّي أعرف أنّه ينبغي للمرء أن يحضّر قائمةٌ بالأشياء التي يودّ روايتها قبل أن يبدأ بروايتها. فلنسمّها جَرْد.

- خارطة طريق؟ - اقترحتُ.

- خارطة الطريق هي التي تخطّطها عندما لا تكون متأكِّدا إلى أين تذهب، وهكذا تقنع نفسك وبعضًا من الأغبياء بأنكم تتوجّهون إلى مكانٍ معيّن.

- الفكرة ليست سيّئة. - ألححتُ - خداع الذات هو سرّ نجاح كلّ مشروع مستحيل.

- أرأيت؟ نحن نشكّل فريقًا تشاركيًا لا يُقهَر. أنت ستدوّن الملاحظات وأنا أفكّر.

- ففكّرْ بصوتٍ جهيرٍ إذن!

- هل ثمّة ما يكفي من الحبر في ذلك القلم التافه، للقيام برحلةٍ إلى الجحيم ذهابًا إيابًا؟

- ما يكفي للشروع بها.

- والآن لا يجب علينا إلا تقرير نقطة البداية لتحضير القائمة.

- ما رأيك لو بدأنا بحكاية تعرّفك عليها؟ - سألتُه.

- من؟

- ومن غيرها يا فيرمين؟ أليس في بلاد العجائب، آليس التي تخصّنا.

عَبَرَ ظلٌّ غامضٌ وجهَه.

- لا اعتقد انّني رويتُ هذه الحكاية لاحدٍ ابدًا يا دانيال. ولا حتّى لك.

- فما أفضل بابٍ لولوج المتاهة إذن؟

- لا بدّ للرجل أن يموت حاملًا معه بعض الأسرار. - اعترض فيرمين.

- كثرة الأسرار هي التي تقضي بالرجل إلى قبره قبل الأوان.

رفع فيرمين حاجبيه متفاجئًا.

- من القائل؟ سقراط؟ أنا؟

- لا. القائل هو، وللمرّة الأولى، دانيال سيمبيري خيسبرت، الرجل العبقريّ، منذ ثانيتين.

ابتسم فيرمين متأثرًا واستلّ إحدى سكاكر السوغوس بنكهة الليمون متهيّأ لحملها إلى فمه.

- لقد استغرقتَ وقتًا طويلًا، لكنّك تتعلّم من الأستاذ أيّها اللعين.

أتريد واحدة؟

قبلتُ حبّة السوغوس لأنّني كنت أعلم أنّها أثمن ما في ثروة صديقي فيرمين برمّتها، ولأنّه كان يمنحني شرفًا عظيمًا بمقاسمته كنزه.

- هل سمعتَ من قبل بتلك المقولة المفيدة إنّ كلّ شيءٍ مسموحٌ في الحبّ والحرب يا دانيال؟

- أحيانًا. وما سمعتُها بطبيعة الحال إلّا من أفواه أولئك المتعطّشين للحرب أكثر من ميولهم إلى الحبّ.

- حقًا، لأنّها في نهاية المطاف أكذوبةٌ فاسدة.

- إذن، أهي قصّة حبُ أم حرب؟

شدّ فيرمين كتفيه.

- ما الفرق؟

وهكذا، برعاية منتصف الليل، ومع حبّتين من السوغوس وشعوذة الذكريات التي كانت عرضةً للفَناء في ضباب الزمن، بادر فيرمين بتصميم الخطوط التي ستَحْبُكُ نهايةَ - وبداية - حكايتنا...

مقتطف من

متاهة الأرواح

(مقبرة الكتب المنسية، الكتاب الرابع)،

لِـ خوليان كاراكس،

منشورات النور، باريس 1992

الطبعة بإشراف إميل دو روزه كاستيلين.

يوم الغضب[1]

برشلونة

مارس عام 1938

(1)

أيقظتْه رعدةُ البحر. فتح الهاربُ عينيه فتبدّت له ظلمةٌ تهيم في لا نهاية. وحين تنبّه إلى عفن النطرون، وحركة السفينة، ورجرجة البحر يضرب هيكلها، تذكّر أنّه ليس على اليابسة. أبعَدَ عنه الأكياس التي استخدمها مرقدًا ونهض بحذر، يستبصر ذلك البنيان الهائل من الأعمدة والأقواس الذي يشكّل عنبر الشحن في السفينة.

بدت له تلك الرؤية حلمًا، لكأنَّه يرى كاتدرائيةً غارقةً ومسكونةً بما خُيِّل إليه غنائم مسروقة من مئات الأبنية والمتاحف. ترتسم ملامحُ مرآب عرباتٍ فخمة مغطاةٍ بستائر شبه شفّافة ما بين سلسلةٍ من اللوحات والمنحوتات. وبجانب ساعةٍ بجرسٍ ضخمة، يبرز قفصٌ يحتوي على ببغاءٍ ذي ريش مبهرٍ يراقبه بحزم ويُقدّر وضعه مهاجرًا غير شرعيّ.

بعدها بأمتار، أبصَرَ نسخةً عن تمثال داوود لميكيل أنجلو، وكان أحد المشاكسين قد توّج التمثال بطاقيّة الحرس المدنيّ. وخلف داوود، ثمّة جيشٌ طيفيٌّ من هياكل دمى الأزياء الملبَّسة بثيابٍ من حقبةٍ منقضية، كأنّها قد جُمّدت في رقصة فالس نمساويّ أبديّة. على الجانب منها، هناك كومةٌ من ملصقاتٍ دعائيّةٍ قديمة ومؤطرة، مسنودة إلى عربة جنائزية مهيبة، زجاج أبوابها من الكريستال، والنعش متضمّن داخلها. كان أحد تلك الملصقات، من فترة ما قبل الحرب، يعلن عن الكوريدا/ مصارعة الثيران في حلبة البلازا دي لاس أريناس.

وكان اسم أحدهم، «فيرمين روميرو دي توريس» يظهر في قائمة المصارعين الخيّالة. تماهت عينا المسافر المختبئ بتلك الأحرف، وكال حينذاك يدعى باسمٍ اخر سيتخلّى عنه قريبًا في رماد تلك الحرب.

هجَّي الكلمات بشفتين صامتين:

Fermin

Romero de Torres

فيرمين روميرو دي توريس

اسمٌ جميل، قال في نفسه. موسيقيٌ. أوبراليّ. يرتقي إلى مستوى سيرةٍ بطوليّةٍ وجريحةٍ لهاربٍ من أجل الحياة إلى الأبد. فيرمين روميرو دي توريس - أو بالأحرى الرجل النحيل الهزيل ذو الأنف الكبير الذي سيتّخذ هذا اللقب اسمًا في يوم قريب - كان قد أمضى اليومين الأخيرين في أحشاء تلك الباخرة التجاريّة التي غادرت مرفأ بلنسيةَ مساء أمس الأوّل. تمكّن من التسلّل إلى متنها بأعجوبة، وحشر نفسه في حاويةٍ كبيرةٍ معبّأة بالبنادق القديمة، متخفّيا بين شتّى أنواع الصناديق والحمولات. وكان جزءٌ من تلك الأسلحة ملفوفًا بأكياسٍ معقودةٍ بالأربطة تقيها الرطوبة، لكنّ البقيّة كانت تسافر بلا وقاية، مكدَّس بعضُها فوق بعض، فبدت له مُعدَّة للانفجار في وجه جنديٍّ منحوس، أو في وجهه هو إذا اتكأ حيث لا ينبغي، أكثر من كونها مُعدَّة لضرب العدوّ.

وكان فيرمين يصول ويجول كلَّ نصف ساعة في عقدة الحاويات وصناديق البضائع، لكي يمدَّد ساقيه ويقارعَ الكَدَرَ الذي سبّبتْه البرودة والرطوبة في تقيُحهما على جدران هيكل السفينة، ولكي يبحث عن

شيء يُؤكَل أو - إذا تعذّر ذلك - عن شيءٍ يُزجَّي به الوقت. وفي إحدى جولاته، عقَدَ صداقة مع فأرٍ ضليعٍ بتلك الأوقات العصيبة؛ وما إن مرّت فترة التشكُّك الأوّليّ حتّى دنا منه على استحياء، وراح يهنأ من دفء حضنه ويشاركه قطع الجبن القاسية التي وجدها فيرمين في إحدى خزائن الأغذية. وكان لذلك الجبن طعمُ الصابون؛ وبحسب مَقدِرات فيرمين على التمييز الغذائيّ فإنّه ما من دليلٍ دامغٍ على أن بقرةٌ أو أيَّ حيوانٍ مجترّ له شأنٌ بتحضير تلك المادّة المُرَيّتة والدبقة. إلّا أنّ الحكمة تستوجب الرجال على الاعتراف بأنْ لا وجود لقاعدةٍ مكتوبة للمسائل المتعلّقة بالذوق؛ وإن كان ثمّة واحدة فإنّ بؤس تلك الأيام يُفسِد القول ببساطة. وهذا ما جعل الصديقين يستمتعان بالمأدبة بحماسةٍ لم تكن لتولد لولا تراكم شهورٍ وشهور من الجوع.

- يا رفيقي القارض، إنّ أهمّ فضائل النزاعات الحربيّة هو أنّ القرف يبدو لك بين عشيّةٍ وضحاها منّا من السماء، بل وحتّى البراز المعشّق بدقّة على العصا يُشعِرك بأنّه مثل خبز الباغيت الخارج تؤا من أحد الأفران الباريسيّة. وإنّ هذه الحمية التي يتّبعها العساكر في مخيّماتهم، والمكوّنة من حساءٍ من ماءٍ قذرٍ ولباب الخبز، ممزوجًا بالنشارة، تُطمئِنُ الروحَ وتطوّر حساسيّة الجوف الفمويّ، فإذا جاء ذلك اليوم أدركنا أن حتّى فلّين الجدران، في الأوقات الحرجة، يصبح بنكهة جلد الخنزير الإيبيري.

كان الفأر ينصت صابرًا إلى فيرمين بينما يتقاسمان الطعام الذي استطاع الهارب اختلاسه. وفي بعض الأحيان يغفو عند قدميه وقد أنهكه الشبع. وكان فيرمين يراقبه، مدركًا بأنّهما أصبحا صديقين لأنهما في العمق يتشابهان.

- أنت وأنا توأمٌ يا رفيق. نستعين بالفلسفة على احتمال بلايا القرد المنتصب ونوفّر ما نقدر عليه من أجل البقاء. فلتكن مشيئة الربّ أن يأتي يومٌ ليس ببعيد تندثر فيه الرئيسيّات على حين غرّة، وتتفسّخ جثثها تحت الأرض مع ديناصور الدبلودوكوس والدودو والماموث، بحيث إنّ المخلوقات الشغيّلة والمسالمة مثلك، التي تكتفي بالطعام والزنا والنوم، ترث الأرض، ولا باس إذا تقاسمتموها مع الصرصار وبعض الخنافس.

وقد يكون للفأر رأيٌ مخالف، لكنه لا يُدلي به. لأنهما كانا يتعاشيان بودّ، لا يسعى أحدهما لاستعباد الآخر، كأنّهما شريفان يبرمان اتّفاقا. وخلال النهار كان صدى خطوات الخدم وأصواتهم يتردّد في بؤرة تجمُّع الأوساخ فيتناهى إلى مسامعهما. وفي الحالات النادرة التي ينزل فيها أحد أفراد الطاقم إلى هناك، ليسرق شيئًا ما بحُكم العادة، كان فيرمين يعود إلى مخبئه في حاوية البنادق التي خرج منها، وهكذا يُسلّم نفسه لقيلولةٍ في مهد البحر ورائحة البارود. وفي اليوم الثاني، استكشف فيرمين بازار العجائب التي تسافر متستّرة في بطن حوت اللوياثان ذاك، فعثر على صندوقٍ يغصّ بنسخ راقية التجليد من الكتاب المقدّس، كيف لا وهو النبيّ يونس الجديد والباحث في أسرار الكتابات المقدّسة بدوام جزئيّ. لم يبدُ له الاكتشافُ بالقوّة والجماليّة المتوقّعتين، لكنّه استعار نسخةً لانعدام قوائم أدبيّة أخرى، وراح يقرأ منها على ضوء شمعةٍ سَحَبَها هي أيضًا من مكانٍ ما، بصوتٍ جهير لنفسه ولرفيق رحلته، مقتطفاتٍ مختارةً من العهد القديم، الذي لطالما بدا له بسحر تعابيره أجزلَ من العهد الحديث.

- أعزْني اهتمامك يا مُعلّم، فالآن سنقرأ حكايةً استثنائيَّة تعبّر عن عمق المدرسة الرمزيّة، وعليها ما يكفي من توابل الختان وسفاح ذوي القربي بحيث يسارع الأخوان غريم شخصيًا إلى تبديل سراويلهما.

ومرّت الساعاتَ والأيّام في حِمى البحر حتّى فتح فيرمين عينيه فجرَ السابع عشر من مارس 1938 واكتشف أنّ صديقه القارض قد اختفى.

لعلّ الفأر قد ارتعدت فرائصه فزعًا من الإصغاء إلى قراءات بعض المقاطع من رؤيا القيامة ليوحنّا الرسوليّ في الليلة السابقة؛ أو أنّ الحدسَ أوحى له بمشارفة الرحلة على نهايتها وينبغي أن ينجو بجِلده.

تكدَّر فيرمين من عذاباتِ بردٍ ينخر العظام ليلةً أُخرى، فزحف حتّى الإطلالة التي تعرضها كوّة تتسلُّ منها أنفاسُ الفجر القرمزيُّ. كانت النافذة المدوَّرة على مستوى خطِّ العوم أو تكاد، واستطاع فيرمين أن يرى من خلالها كيف تنهضُ الشمس لتكسو البحر بلون الخمر. قَطَعَ العنبر إلى الجانب المقابل، مُنحّيًا عن طريقهِ صناديق المؤن وكومة دِّراجات صدئةٍ ومربوطةٍ بالحبال، وألقى نظرة. اكتسحت أبخرةُ شعاع منارة المرفأ عُرضَ السفينة لتومض بدفقاتٍ آنيّة سهامَ الضوء على كلِّ نوافذ العنبر. وما وراء المنارة سرابٌ من ضباباتٍ تتلوّى بين الأبراج والقُبب والأجراس، تنبسط تحته مدينةُ برشلونة. ابتسم فيرمين في سرِّه، وتناسى لوهلةٍ كلَّ البرد والرضوض التي تغطّي جسده، ثمرةً للكوارث والمناوشات التي أُبتلي بها في آخر ميناءٍ عَبَرَ منه.

- لوثيا... - غمغم مستحضرًا ذلك الوجه الذي لولا ذكراه لما ظلَّ حيًّا في أسوأ اللحظات.

أَخرجَ الظرف الذي جاء به من بلنسية من جيب سترتهِ الداخليّ، وتنهَّد. فتبدّد الحُلم باللحظةِ ذاتها. كانت السفينة أقرب إلى المرفأ ممّا تخيَّل. وإنَّ أيَّ هاربٍ يستحقّ هذه التسمية يعرف جيِّدًا أنّ الصعوبة ليست بالتسلّل إلى السفينة، بل بالفرار منها سالمًا غانمًا من دون أن تراه عين. وإذا كان يأمل في النزول إلى البرِّ بقدميه شرط أن تبقى عظامه في محلِّها، فمن الأجدر أن يبدأ بإعداد خطّة الهروب. وبينما كان يسمع خطوات طاقم السفينة بوتيرة حراكٍ متزايدٍ على ظهرها، أدرك أنّها تغيِّر مسارها، وأنّ محرِّكاتها تخفِّض سرعتها لتجتاز منفذ الميناء.

أعاد الرسالة إلى محلّها وسارع لطمس البصمات الدالّة على وجوده، فخبَّأ بقايا الشموع المستعملة، والأكياس التي استخدمها مرقدًا، والكتاب المقدّس الذي أسلاه بقراءاتٍ تأمليّة، وفضلات بديل الجبن والكعك الفاسد. ثمّ أغلق ما استطاع من الصناديق التي غامر بفتحها بحثًا عن أغذية، بدقّ المسامير عليها بالكعب البالي من جزمته المُحتَضرة. وإذ تمعَّن بحذائه المتقشّف، قال فيرمين لنفسه إنّه ما إن ينزل البرّ ويوفي بالعهد الذي قطعه، فإنَّ هدفه التالي سيكون تدبير حذاء لا يبدو مسروقًا من مشرحة. وفيما كان الهارب منهمكًا في العنبر، استطاع أن يرى من خلال الكِوى دخولَ السفينة في مياه ميناء برشلونة.

ألصق أنفه بزجاج الكوّة مرّة أخرى، فاقشعرّ بدنه إذ تراءى له جانبٌ من القلعة التي تضمّ السجن العسكريّ على قمّة جبل مونتويك، وهي تهيمن على المدينة مثل طائرٍ مفترسٍ.

- توخَّ الحذر وإلّا انتهيتَ هناك... - همس.

كان التمثال الهرميّ لكريستوفر كولومبس يتبدّى في البعيد، مصوِّبًا إصبعه إلى الوجهة الخاطئة كالعادة، متوهِّمًا بأنَّ القارَّة الأمريكيّة هي أرخبيل الباليار. وخلف المستكشف التائه، تنفتح منافذ لاس

رامبلاس لتصعد نحو قلب المدينة القديمة، حيث كانت لوثيا بانتظاره. تصوَّرَها لوهلةٍ تعبق بالعطور تحت شراشف السرير. حتّى أبعَدَ العارُ والذنبُ تلك الرؤية من أفكاره. لقد خان العهد.

- ملعون. - نَعَتَ نفسه.

مرَّت ثلاثة عشر شهرًا وسبعة أيّام مذ رآها آخر مرّة؛ ثلاثة عشر شهرًا مرّت عليه كأنّها ثلاثة عشر عامًا. تمكَّن أن يختطف صورةً أخيرةً قبل أن يعود إلى مخبأه: جانبٌ من عذراء الرحمة، شفيعة المدينة، على قمّة قبّة كاتدرائيّتها قبالة الميناء، في محاولةٍ لا تنتهي للتحليق فوق سطوح برشلونة. لقد أوصاها بروحه وجسده القانط، فعلى الرغم من عدم دخوله كنيسة منذ أن كان في ربيعه التاسع، حيث دخل المصلّى في مسقط رأسه بالخطأ، ظنًّا منه أنّها المكتبة العامّة، أقسم فيرمين باسم مَن يستطيع سماعه ويرغب في ذلك، أنَّ العذراء - أو أحد نوّابها ذوي السُّلطات السماويّة - إذا تشفّعتْ له وساعدتْه في الوصول إلى غايته دون أضرارٍ خطيرة أو جروحٍ قاتلة، فإنَّه سيَنذُرُ حياته تانيةً لرحاب التصوُّف الروحيّ وسيصبح زبونًا دؤوبًا لمصانع الكتيّبات الدينيّة. وحين انتهى من القَسَم، صلّى مرّتين بإشارة التثليث وسارع للتخفّي مجدَّدا في حاوية البنادق، مستلقيًا على سرير الأسلحة مثل المتوفّى في نعش. وما كاد يغلق الغطاء، حتّى لمح صديقه الفأر يراقبه من أعلى كومةٍ من الصناديق التي تصل إلى سقف العنبر.

- حظًّا سعيدًا يا رفيقي! - غمغم له بالفرنسيّة.

وبعد لحظة واحدة، غاص في ظلماتٍ بنكهة البارود، فيما مزَّقتْ برودةُ معدن البنادقِ جِلده، وقد حُدِّدَ مصيرُه حتميًّا.

(2)

أحسَّ فيرمين بعد قليل بأنَّ دويَّ المحرِّكات يخبو، وأنَّ السفينة تتمايل على رِسْلِها في مياه المرفأ الهادئة. وبناءً على حساباته، ما زال هناك وقتٌ كي يصلوا إلى الرصيف. فبعد توقُّف السفينة عند محطّتين أو ثلاث خلال الرحلة، تعلَّمتْ أذنا فيرمين قراءة بروتوكول تنافر الأصوات المتصاعدة من مناورات الرسوِّ وإنزالِ الحبال وتتابُع طَرْقِ بَكَراتِ المرساة وأنين السفينة من شدّة الضغط على هيكلها لسحبها نحو الرصيف. وبصرف النظر عن خطواتٍ وأصواتٍ في ارتباكٍ غير معهود على ظهر السفينة، لم يتمكَّن فيرمين من تحديد أيٍّ من تلك الإشارات.

لقد قرّر القبطان، لسببٍ ما، أن يوقف السفينة قبل الأوان؛ وكان فيرمين قد تعلَّم أثناء الحرب في السنتين الماضيتين أنَّ الأمور المفاجِئة غالبًا ما تحدث بالتزامن مع تلك المؤسفة، فضغط على أسنانه وصلَّى بالتثليث مرَّة أخرى.

- أيّتها العذراء الحبيبة، لَأَكْفُرَنَّ بمبدأ اللا أدريّة الضلاليّ، وبخبث إرشادات الفيزياء الحديثة - غمغم وهو في إقامته الجبريّة بذلك التابوت الذي تقاسمه مع بنادقٍ من أردأ النوعيّات.

لم تتأخّر مناجاته في الحصول على ردّ. شعر فيرمين بما بدا له مركبًا آخر، أصغر حجمًا، يدنو ويلامس عُرض السفينة. وبعد لحظات، دوّت أصداءُ خطىً ثقيلة - لكأنّها عسكريّة - على المتن لتختلط بصياح أفراد الطاقم. ابتلع فيرمين ريقًا. إنّهم يتعرّضون لمداهمة.

(3)

«ثلاثون عامًا في البحر، ولا تعترضك المخاطر إلّا عندما ترسو على اليابسة»، كان القبطان آرايث[2] يحدِّث نفسه وهو يراقب من سطح السفينة الأعلى مجموعةَ الرجال الذين صعدوا ميسرة السفينة توًّا. كانوا يُشْهِرون بنادقهم متوعِّدين، يُقصون أفراد الطاقم هنا وهناك ويُفسحِون المجال للرجل الذي بدا أنَّه زعيمهم. كان آرايث أحد أولئك البحَّارة الذين شُويَ جلدهم وشعرهم من كثرة تعرُّضهم للشمس وأحماض النطرون، والذين كانت نظراتهم السائلة تبدو متشابكةً بحجابٍ من دموع. كان في شبابه يظنّ أنَّ الإبحارَ بحثٌ عن المغامرة، لكنَّ الدهر علَّمه أنَّ المغامرة في انتظاره دائمًا على أرصفة المرافئ، بنوايا مبيَّتة.

لم يكن هناك شيءٌ يخشاه في البحر، في حين أنَّ اليابسة تغزوه بالغثيان، وخصوصًا في تلك الأيام.

- برميخو، خُذ جهاز الإرسال وأرسلْ إشارةً إلى الميناء، أعلِمْهُم بأنَّهم أوقفونا مؤقتًا، لذا سنتأخّر في الوصول قليلًا.

اصفرَّ وجه برميخو، نائبه الأوّل، وكان بجانبه قد بدأ بإظهار ارتجافه الذي ما انفكَّ يراوده في الأشهر الأخيرة بسبب القصف والمناوشات. برميخو المسكين، الذي كان عريفًا سابقًا في الملاحة النهريّة بنهر الوادي الكبير، ليس شجاعًا بما يكفي لهذا العمل.

- مَن أقول إنَّه أوقفنا، أيَّها القبطان؟

حطَّت نظرات آرايث على الرجل الذي وصل إلى ظهر السفينة توًّا.

متدثِّرا بسترةٍ مطريّة سوداء، ومزوَّدًا بقُفّازات وقبّعة عريضة الحوافّ، الوحيد الذي لا يبدو أنّه مسلَّح. راقبه آرايث كيف يسير ببطء على متن السفينة. كانت تصرُّفاته تشي بهدوءٍ ولامبالاةٍ محسوبَين. عيناه المختبئتان خلف النظّارة داكنة اللون تمسحان وجوه أفراد الطاقم، ووجهه يخلو من أيِّ تعبير. توقَّفَ أخيرًا وسط ظهر السفينة، ورفع نظراته نحو سطحها الأعلى، فنزع النظّارة وهو يلفظ تحيَّةً بابتسامةٍ كابتسامات الزواحف.

- فوميرو. - غمغم القبطان.

بدا أنَّ برميخو قد ضاق بعشرة سنتمترات منذ أن شرع ذلك الرجل في التجوّل هناك، فنظر إليه وقد ابيضّ وجهه كالجصّ.

- مَنْ؟ - تمكّن من لفظ هذه الكلمة.

- مباحث سياسيّة. انزلْ ونبِّه الرجال بعدم التصرُّف بحماقة. ثمّ أرسِلْ إشارةً إلى الميناء، مثلما قلتُ لك.

أومأ برميخو، لكنّه لم يبرح مكانه. فحدَّق إليه آرايث.

- انزل يا برميخو. وحاولْ ألّا تتبوَّل على نفسك، حبًّا بالله!

- بأمرك أيّها القبطان!

ظلّ آرايث بمفرده لحظاتٍ على السطح. كان النهار صافيًا، والسماوات تبدو من زجاجٍ رائقٍ تتخلّله لمساتٌ من غيوم هاربه كانت ستغري رسّام لوحاتٍ مائيّة. لكنّه فكّر برهةً في ما إذا كان عليه أن يحمل مسدس الرِّيفولفر الذي يحفظه في خزانةٍ مقفلةٍ من قُمْرَتِه؛ إلّا أنَّ سذاجة الفكرة رسمتْ على شفتيه ابتسامة مريرة. التقط نفسًا عميقًا، وعقد أزرار سترته المنفرطة، ونزل من السطح الأعلى إلى حيث كان أحد معارفه القدامى في انتظاره وهو يداعب سيجارة بين أصابعه.

(4)

- قبطان آرايث، مرحبًا بك في برشلونة.

- شكرًا حضرة الملازم.

ابتسم فوميرو.

- لقد ترَّفعتُ إلى رتبة قائد.

أومأ آرايث مُركِّزًا أبصاره على تلك العدستين القاتمتين اللتين لا تسمحان بتكهُّن الجهة التي تروم إليها عينا فوميرو الثاقبتان.

- تهانينا.

قدَّم فوميرو إليه إحدى سجائره.

- لا، شكرًا.

- إنّها نوعيُّة فاخرة. - ألحَّ فوميرو - أمريكيُّة شقراء.

قَبِلَ آرايث السيجارة ووضعها في جيبه.

- هل تودّ التحقُّق من الوثائق والتراخيص، حضرةَ القائد؟ كلُّ شيءٍ هنا نظاميّ، مُصَدَّقًا بالتصاريح وأختام الحكومة...

أبدى فوميرو لامبالاته، ونفخ غيمةً من الدخان وهو يحدِّق إلى جمرة سيجارته، بابتسامةٍ طفيفة.

- إنّني متأكِّد مِنْ أنَّ وثائقك نظاميّة. ولكن، قل لي: ماذا لديك في عنبر الشحن؟

- مؤن. أدوية، أسلحة وذخائر. وعدّة قِطعٍ مختلفة من مِلكيِّات مصادَرة لنقلها إلى المزاد العلنيّ. قائمة الجرد المصدَّقة بالختم الحكوميّ لمفوضيّة بلنسية تحت تصرُّفكم.

- لم أكن أتوقّع منك أقلّ من ذلك أيّها القبطان. لكنَّ هذا الأمر يعنيك أنت وسلطات الميناء والجمارك. أمّا أنا لستُ سوى خادمٍ بسيطٍ للشعب.

أومأ آرايث بهدوء، مذكِّرًا نفسه بأنَّه لا ينبغي أن يحيد نظراتهِ أبدًا عن تينك العدستين السوداوين والمنيعتين.

- هلّا أعلمتني يا حضرة القائد عمّا تودّون البحث عنه؟

أشار إليه فوميرو بأن يتبعه، ومشيا على ظهر السفينة على مرأى من جميع أفراد الطاقم مترقِّبين. توقَّف فوميرو بعد عدّة دقائق، سحب من سيجارته مجَّةً أخيرة، ورمى عقبَها إلى الماء. اتكّأ على السياج يرنو إلى برشلونة كما لو أنَّه لم يرها من قبل.

- هل شممتَها أيّها القبطان؟

تمهَّل آرايث قليلًا قبل أن يردّ.

- لم أفهم جيِّدًا عمّا تلمّح يا حضرة القائد.

ربّت فوميرو على ذراع القبطان برقّة.

- تنفَّسْ عميقًا. خذ وقتك كاملًا. سترى كيف تشمُّها.

تبادل آرايث نظرةً مع برميخو. ونظر أفراد الطاقم كلٌّ إلى زميله مشتَّتين. التفت فوميرو ودعاهم إلى الاستنشاق بإيماءةٍ منه.

- ها. ما رأيكم؟

حاول آرايث أن يجبر نفسه على ابتسامةٍ لم تصل إلى شفتيه.

- أمّا أنا أشمُّها جيِّدًا. - قال فوميرو - لا تقل لي إنّك لم تلاحظها.

هزَّ آرايث رأسه غير مقتنعٍ كليًّا.

- لقد شممتَها بالتأكيد. - ألحَّ فوميرو - مثلي أنا ومثل جميع الحاضرين. إنَّها رائحة فأر. الفأر القذر الذي خبَّأتَه أنت في السفينة.

قطَّب آرايث جبينه مرتبكًا.

- أوكّد لك أنّني...

رفع فوميرو كفّه لكي يُخرِسه.

- عندما يتسلّل إليك فأر، فما من وسيلة للتخلُّص منه. تدسّ له السمّ فيأكله. تنصب له الفخاخ فيتغوّط عليها. الفأر هو المخلوق الذي يصعب هزمه. لأنّه جبان. لأنّه يختبئ. لأنّه يتوهّم أنّه أدهى منك.

تمهَّلَ فوميرو بضع لحظات ليتذوَّق كلماته.

- وهل تعلم ما أنجع طريقة لدحر الفأر أيّها القبطان؟ لتقضي عليه مرَّة واحدة وإلى الأبد؟

هزّ آرايث رأسه نافيًا.

- لا أعلم يا حضرة القائد.

ابتسم فوميرو مبرزًا أسنانه.

- بالتأكيد لا تعلم. لأنّك رجلٌ خُلِقَ للبحر ولا حاجة إليك بمعرفة هذه الأشياء. هذا عملي. وهذا هو السبب الذي دفع الثورة إلى اعتمادي. لاحظْ أيها القبطان. لاحظْ وتعلَّمْ.

وما كاد آرايث ينطق بكلمة حتّى ابتعد فوميرو نحو رأس السفينة متبوعًا بأزلامه. وحينذاك أدرك القبطان أنَّه أخطأ التقدير. فوميرو كان مسلّحًا. إذ لوَّح بمسدّس الريفولفر اللامع، شبيه التحفة. واجتاز ظهر السفينة مُبعِدًا كلَّ أفراد الطاقم عن طريقه بلا احترام، وتجاهَلَ مدخل الكبائن. كان يعرف إلى أين يتّجه. وبإشارةٍ منه، طوَّقَ رجاله باب عنبر الشحن المُغلق، وانتظروا أوامره. انحنى فوميرو على الصفيحة المعدنية وطرق عليها ببراجم يده بخفّة، كأنَّه يطرق باب صديقٍ قديم.

- مفاجأة. - نَغّمَ قائلاً.

عندما انتهى رجاله من تحطيم ذلك الباب، وانكشف باطن السفينة على ضوء النهار، رجع آرايث إلى الخلف لكي يلتجئ في السطح الأعلى. لقد سَبَقَ له أن رأى وتعلَّم بما فيه الكفاية خلال الحرب التي امتدّت عامين. والمشهدُ الأخير الذي رآه هو أنّ فوميرو كان مثل القطّ يلحس شفتيه قبل أن يغطس في عنبر الشحن، والمسدَّسُ في قبضته.

(5)

بعد يومين من حَبسه في العنبر الذي لم يستنشق فيه إلّا الهواء الفاسد نفسه، أحسّ فيرمين بنسمةٍ منعشةٍ ونقيّة تدخل من الباب وتتسرّب بين وصلات حاوية الأسلحة التي كان مختبئًا فيها. ثنى رأسه على أحد الجانبين، واستطاع أن يلمح من المنفذ ما بين الغطاء والجانب مروحةً من حُزَمٍ ضوئيّةٍ مغبرّة تكتسح العنبر. مشاعل.

وكان النور الأبيض والبخاريّ يلامس أطراف البضائع المشحونة، فيُبرز شفافيّة الستائر التي تغطّي السيّارات والأعمال الفنيّة. دنا وقْعُ الخُطى والأصداء المعدنيّة التي تَتردّد في بؤرة الأوساخ شيئًا فشيئًا.

ضغط فيرمين على أسنانه وراح يكرّر في سرّه كلّ الخطوات التي اتّبعها حتّى العودة إلى ملاذه. الأكياس، الشموع، فضلات الطعام، والبصمات التي من الوارد أنّه خلّفها على امتداد الممرّ. كان يعتقد أنّه لم يغفل عن شيء. وقال لنفسه إنّهم لن يعثروا عليه هناك أبدًا. أبدًا.

فإذا به يسمع ذلك الصوت الحادّ والمألوف ينطق اسمه كما لو أنّه يشدو الألحان، فارتعشت ركبتاه مثل قالب الجلاتين.

فوميرو.

بات تردُّد الصوت والخطى أقرب فأقرب. أغمض فيرمين عينيه؛ مثلما يغمضهما طفلٌ أرهبه دويٌّ غامضٌ في قلب ظلام غرفته، لا لأنّه يظنّ أنَّ الإغماض سيحميه، بل لأنَّه لا يجرؤ على التعرُّف إلى ذلك الطيف الذي يظهر من أحد جوانب السرير ليُطبِقَ عليه. وفي تلك اللحظة أحسَّ الهارب بالخطى تدنو منه على مقربة سنتمترات، ببطء شديد. تلمَّس فوميرو بأصابعه المُغمَّدة بالقفّازات غطاءَ الحاوية، كما لو أنَّها ثعبانٌ يزحف على السطح. وكان يدمدم لحنًا ما؛ فحبس فيرمين أنفاسه وأبقى عينيه مغمضتين. تقَطَّرَ جبينه بالعرق ما اقتضى أن يشدّ قبضتيه كي لا ترتجفا. لم يجرؤ على تحريك أيّ عضلة، خشية أن يُصدِر جسمُه أدنى صوت إذا ما احتكّ بأكياس البنادق.

ربما كان قد أخطأ. ربما كانوا سيعثرون عليه. ربّما لا وجود لأيّ مكانٍ بالعالم يستطيع التستُّر فيه ليبقى على قيد الحياة مدّة يوم إضافيٍّ فيروي حكايته. ربّما، بعد كلّ هذا العذاب، كان ذلك اليومُ - ككلّ الأيّام الأخرى - مناسبًا للرحيل. وطالما أنَّ الأمر كذلك، لم يكن ليمنعه أحدٌ من رفس غطاء الحاوية ومواجهتهم بإحدى تلك البنادق التي كان مستلقيًا عليها. فأنْ يموتَ مُغربَلًا بالرصاص في غضون ثانيتين لأهونُ عنده من الموت على يدي فوميرو وألعابه البهلوانيّة جرَّاءَ أسبوعين من الشَّبْحِ على السقف في إحدى زنازين قلعة مونتويك.

تحسَّس حوافّ أحد تلك الأسلحة بحثًا عن الزناد وأمسكه بقوّة.

وحتّى تلك اللحظة، لم يخطر في باله ترجيحُ أن يكون السلاح فارغًا.

لا يهمّ، قال في سرّه. فبالتصويب من هناك، كان قادرًا على سحق نصف ساق أحدهم أو أن يسدّد طلقة في عين تمثال كولومبوس. ابتسم للفكرة واحتضن البندقيّة على صدره، ليبحث عن القادح. لم يجرِّب

إطلاق النار من قبل، لكنّ الحظ يحالف الأغرار دومًا، كما أنّ المسألة تستحق تصويتَ ثقةٍ واحدًا على الأقل. هيَّأ القادح واستعدّ لتفجير رأس الدون فرانشسكو خافيير فوميرو على طريق الفردوس أو الجحيم.

إلّا أنّ تلك الخطوات ابتعدت بعد قليل، لتحمل معها فرصة المجد، مُذكِّرةً إيّاه بأنّ العشّاق الكبار - سواءً بالخبرة أم بالموهبة - لا يولدون ليصبحوا أبطالًا في اللحظة الأخيرة. سمح لنفسه بالتقاط نَفَسٍ عميق ثمّ وضع يديه على صدره. كانت ثيابه ملتصقة بجسمه كما لو أنّها جِلدٌ إضافيّ. فوميرو وعسسُه يبتعدون. تخيَّلَ فيرمين أطيافهم تتوه في ظلمات العنبر وابتسم منتشيًا. ربّما لم تكن هناك إخباريُّة أو وشاية، ربما تعلّقَ الأمر بمجرّد تفتيشٍ روتينيّ.

وها قد توقَّفت الخطوات حينئذٍ. ساد صمتُ المقابر على المكان ولم يتسنَّ لفيرمين أن يسمع شيئًا ما عدا نبضات قلبه. وحينها، أحسَّ بزفيرٍ أصمّ، ووخزةٍ خفيفةٍ وناعمة تطوف حول غطاء الحاوية، على بُعد سنتمترات من وجهه. فعرفه من خلال رائحته الواهنة، المتراوحة بين الحلو والحادّ. إنّه رفيق رحلته، الفأر، كان يشتمُّ بين فتحات العوارض متتبِّعًا رائحة صديقه أغلب الظنّ. تهيَّأ فيرمين ليهمس بخفّةٍ كي يبعده فإذا الدويُّ الهائل يكتسح العنبر كلّه.

سحقت الطلقةُ، ذات العيار الثخين، جسدَ القارض باللحظة ذاتها، وثقبت غطاء الحاوية بسهولة مُحدِثةً شرخًا على بُعد خمسة سنتمترات من وجه فيرمين. تقطَّرت دماءُ الفأر من بين الفتحات وسالت على شفتيه. شعر بوخزةٍ عند ساقه اليمنى، فثنى رأسه ليكتشف أنّ الطلقة في مسارها كادت تصيبه إذ مزَّقت بنطلونه قبل أن تخترق الخشب بخروجها من الحاوية. ثمّة خطٌّ من ضوءٍ سرابيٍّ يجتاز ظلمة مخبأه على طول مسار الطلقة. سمع فيرمين خطواتهم تعود إلى الخلف وتتوقّف بالقرب منه. جلس فوميرو القرفصاء بجانب الحاوية. فاستشعر فيرمين لمعان عينيه من خلال الفتحة الصغيرة بين الغطاء والجانب.

- كعادتك، تعقد صداقاتٍ مع الحثالة، ها؟ كان عليك أن تسمع صرخات زميلك أمانثو عندما قال لنا أين سنجدك. لا يلزمنا إلّا شريطان كهربائيّان، نوصلهما بخصيتيكم أيّها الأبطال، حتّى تطربونا بالزقزقة كالحساسين.

حين واجه تلك النظرات، وتذكَّر كلَّ ما يعرفه عنها، أحسّ فيرمين بأنّه لو لم يتعرَّق تلك الشجاعة القليلة التي أبقته حبيسًا في ذلك الناووس المليء بالأسلحة، لكان قد تبوَّل على نفسه من هول الفزع.

- رائحتك مقرفة أكثر من رائحة زميلك الفأر. - همس فوميرو - أعتقد أنّك بحاجةٍ إلى الاستحمام.

سمع فيرمين رجالَ فوميرو يعربدون وهم يحرِّكون الصناديق ويرمون الأغراض في العنبر. لم يتحرّك قيد أنملة في خضِّم كل ما كان يحدث حوله. ولم تكن عيناه تتفحّصان إلّا ظلام داخل الحاوية كعينَي أفعى تدخل وكرها بكامل الصبر. وبعد قليل، تعرَّضت الحاوية لضربةٍ مكثّفة، فظنّ فيرمين في البدء أنّهم ينوون تحطيمها. لكنّه رأى رؤوس المسامير تُدقُّ على سطح الغطاء فأدرك أنّهم كانوا يختمون محيط الحاوية بإحكام. فاختفت ثقوب الملمترات القليلة بلحظة واحدة. لقد دفنوه في مخبأه.

شعر بأنّ الحاوية تتحرّك على دفعات، وأنَّ عددًا من طاقم السفينة ينزلون إلى العنبر، تنفيذًا لأوامر فوميرو. فتخيَّلَ البقيّة بنفسه. كأنَّ نفرًا من الرجال يرفعون الحاوية من مقابضها وأحزمتها. سمع

انزلاق السلاسل وخضّة الرافعة تشدّه بعنف إلى أعلى.

(6)

كان آرايث وفريقه يشاهدون الحاوية معلَّقة على ارتفاع ستّة أمتار فوق السطح الأعلى، تترنّح في ملعب الريح. ظهر فوميرو من عنبر الشحن وهو يرتِّب النظّارة الغامقة على عينيه، ويبتسم متأثِّرا. رفع أنظاره نحو السطح وأدّى تحيَّة عسكريّة مستهزئًا.

- بالإذن أيّها القبطان، سنتابع عمليّة القضاء على الفأر بطريقةٍ مفيدة لا مثيل لها.

أوعز فوميرو إلى عامل الرافعة بخفض الحاوية بضعة أمتار حتّى وصلت إلى مستوى وجهه.

- ألديك طلبٌ أخير أو توبة؟

كان أفراد الطاقم يراقبون الحاوية بألسنٍ معقودة. بدا أنَّ الصوت الوحيد الذي صدر من الداخل يوحي بأنين حيوانٍ مرعوب.

- هيّا، لا تبكِ. فالأمر ليس خطيرًا إلى هذا الحدّ. - قال فوميرو- ثمّ إنّني لن أرضى بأن تبقى بمفردك. سترى أنّ هناك عددًا كبيرًا من أصدقائك ينتظرونك في الأسفل، بفارغِ الصبر...

ارتفعت الحاوية مرّة أخرى في الهواء وبدأت الرافعة تدور حول متن السفينة. وعندما صارت الحاوية معلّقة فوق عشرة أمتار عن المياه، التفت فوميرو ثانيةً إلى أعلى. كان آرايث يحدِّق إليه بنظرةٍ زجاجيّة، وهو يغمغم ما بين نفسه: «ابن العاهرة»..

أومأ حينذاك، فهوت الحاوية، بما فيها من مئتي كيلو من البنادق وخمسين كيلوغرامًا من جسد فيرمين روميرو دي توريس، هوت في المياه الباردة والداكنة لميناء برشلونة.

(7)

منحته السقطةُ في الفراغ بعض الوقت للتشبُّث بأحد جوانب الحاوية. وعند ارتطامها بالماء، قفزت كومةُ البنادق واصطدمت بقوةٍ بالسقف. وظلّت الحاوية بضع ثوانٍ تطفو على سطح الماء، تتمايل مثل العوّامة. جاهد فيرمين لينزع عنه عشرات البنادق التي كاد يُدفَن تحتها.

لفحتْهُ رائحةٌ حادَّة من الوقود والنطرون. وتناهت إلى مسامعه رجرجة المياه التي نَفَذَتْ عبْر الثقب الذي خلّفته طلقة فوميرو. وما لبث يتحسّس برودة السائل الذي اكتسح القاعدة، حتّى اجتاحه الفزع، وحاول أن ينكمش على نفسه ليبلُغَ الطرف العلويّ. وحين فعلها، انتقل ثقل البنادق إلى أحد الجانبين فمالتِ الحاويةُ ليسقط فيرمين بوجهه على الأسلحة. وفي ذلك الظلام الدامس، أخذ يتحسّس بيديه، مُنحِّيًا عنه البنادق بحثًا عن الثقب الذي تتسرّب منه المياه. وكلّما استطاع إزاحة عشرة بنادق خلف ظهره، عادت لتسقط عليه مجدَّدا بما يدفعه إلى عمق الحاوية التي ما انفكّت تتمايل. وصلت المياه حدّ قدميه، وما زالت تتماوج بين أصابعه. وعندما وصل منسوبها إلى ركبتيه عثر على الثقب وسدَّه بكلا الكفّين قدر الإمكان. وحينذاك، جاءته ثلاث طلقات من ظهر السفينة لتخترق خشب الحاوية وتُحدِث ثلاثة ثقوب أخرى من خلفه، فتسلَّل منها ضوءٌ مخضوضرٌ، ما سمح لفيرمين برؤية المياه التي أخذت تتدفّق بقوّة حتى وصلت حدّ خصره بلحظاتٍ قصيرة. صاح رعبًا وغيظًا، وحاول أن يبلغ أحد تلك الثقوب بيده، لكنّ الحاوية تعرَّضت لخضّة مفاجئة قلبتْها إلى الخلف. زلزله الدويُّ الذي اجتاح صندوقه، كأنّ وحشًا ضاريًا يوشك على افتراسه. صعدت المياه حدّ صدره، فيما كادت البرودة تخنق أنفاسه. عاوده الظلامُ فأدرك فيرمين أنّ الحاوية تغرق، لا مناص. استسلمت يده اليمنى للضغط. كنست المياهُ الباردة دموعَه في الظلام. وحاول فيرمين أن يحبس آخر شهقةٍ من الهواء. ابتلع التيّار هيكلَ الخشب وجذبه نحو العمق. ولم يبقَ من الهواء في داخله إلّا شبرٌ واحد في القسم العلويّ، فعانى فيرمين في الوثوب ليقتنص شهقة أكسجين أخرى. وسرعان ما لمست الحاوية قاعَ الميناء، ومالت على أحد جانبيها فغاص فيرمين في الطين. جَعَلَ يضرب الغطاء بيديه وقدميه، لكنّ الخشب لم يرتخِ خصوصًا بعد أن ثبَّتتْه المسامير جيِّدا. وكانت السنتمترات المتبقّية من الهواء تتسلُّ عبْر الثقوب. أغراه ذلك الظلام المطلق والبارد بالاستسلام، غير أنّ رئتيه كانتا تحترقان وظنّ أنّ رأسه انفجر من شدّة الضغط وانعدام الهواء. فاستسلم للفزع الأعمى من يقينه بالموت خلال ثوانٍ معدودة، ما دفعه للإمساك ببندقيّة ليضرب بأخمصها عُرض الحاوية ويرفس غطاءها في آنٍ معًا. وما إن سدد الضربة الرابعة حتّى تفكّك السلاح بين يديه. فراح يتحسّس بأصابعه كيس القربينة الذي يعوم بفضل فقاعة الهواء المحبوسة فيه.

فأمسكه بكلتا يديه واستأنف الضرب بآخر ما لديه من قِوَى، مستغيثًا بمعجزةٍ لا تتحقّق.

أصدرتِ الطلقةُ تردُّدًا مكبوتًا عندما انفجرت داخل الكيس. وبما أنّها كانت على مسافة قريبة جدًّا، استطاعت أن تخترق الخشب مُحدِثةً دائرة بقُطر قبضة يد. فهبَّ نورٌ خافِتٌ إلى الداخل، وتفاعلت يدا فيرمين قبل دماغه بما حدث. سدّد القربينة نحو النقطة نفسها وضغط على الزناد أكثر من مرّة. غير أنَّ المياه كانت قد ملأت الحاوية فلم تنفجر أيٌّ من تلك الطلقات. أمسك ببندقيّة أخرى وضغط على زنادها من خلال كيس الوقاية. لم تُحدِث أوُّل طلقتين أيَّ أثر، لكنّه أحسّ بارتداد الثالثة على ذراعيه

ورأى الفتحة الدائريّة في الخشب تزداد اتّساعا. ففرَّغ المخزن بأكمله حتّى صارت الفتحة أكبر بما يسمح لجسدٍ نحيلٍ سقيم بالنفوذ عبْرها. ولئن تألَّمَ من حوافّ الخشب المشروخ التي خدشت جلده، فإنَّ وعد الضياء الطيفيّ - الذي يتبدّى كرقائق النور على سطح المياه - كان سيحفِّزه على اجتياز حقلِ سكاكين.

تحرَّق بؤبؤ عينيه بمياه المرفأ الكدرة، لكنّه لم يغمضهما. لقد رأى تحت الماء غابة من أضواء وظلالٍ تتأرجح في العتم المائل إلى الأخضر. شِباكٌ من الحُتات وهياكلُ سُفنٍ غارقةٍ وعصورٌ من الطين تنبسط عند قدميه. رفع أنظاره نحو أعمدة النور البخاريّ التي تتساقط من الأعلى. كان ظلّ السفينة يمتدّ طويلًا على السطح. قَدَّرَ أنَّ منطقة الميناء عميقةٌ بما لا يقلُّ عن خمسة عشر مترًا، وربّما أكثر. فإنْ استطاع أن يبلغ السطح من الجانب الآخر لهيكل السفينة، لن ينتبه أحدٌ إلى وجوده فيبقى على قيد الحياة. أسند ساقيه إلى الحاوية واندفع مُباشِرًا السباحة. وبينما كان يصعد ببطء نحو السطح، استطاعت عيناه أن تبصرا رؤيةً خياليَّة مدفونةً تحت الماء. أدرك أنَّ الأشياء التي ظنّها شِباكًا مُهمَلةً وحشائشَ بحريّة لم تكن إلّا أجسادًا تتماوج في تلك الظلمة. عشرات الجثث مقيَّدة الأيدي، مربوطة السيقان وعالقةٌ بين صخورٍ وقوالب إسمنتيّة، تُشكِّلُ في مجملها مقبرةً تَحْتَمَائيّة. وكانت أسراب الأنقليس تتلوّى ما بين أطرافِ الجثث وتنهش لحم الوجوه، بينما يتراقص الشَّعرُ كيفما اتّجه التيّار. استطاع فيرمين أن يحدِّد أجناسها، رجالًا ونساءً وأطفالًا. وتحت أقدامهم حقائبُ وصُرَرٌ شبه مدفونة في الطين. قَطَعتْ بعضُ الجثث شوطًا متقدِّمًا في التفسُّخ حتّى تبقّت عظامُها بالكاد ناتئةً من خِرَقِ الثياب. كانت تلك الأجساد تُشكِّلُ معرضًا غائصًا في الظلمات إلى ما لا نهايةٍ. أغمض فيرمين عينيه عندئذٍ، وما انفكّ يصعد حتّى ظهر على سطحِ الحياة بعد لحظات. وهكذا تيقّن أنّ عمليّة التنفُّس على بساطتها هي أروع تجربةٍ قام بها في حياته كلِّها.

(8)

وبينما كان يعوِّض ما فاته من أنفاس، ظلّ فيرمين ملتصقًا بضع لحظاتٍ بجانب السفينة مثل المحارة. ثمّة إشارةٌ عوّامة تتمايل على بُعد عشرين مترًا عنه. كانت تشبه منارةً صغيرة، أسطوانةٌ يعتليها قنديل، مسنودةً إلى قاعدةٍ مدوِّرة عليها كابينة. مخطَّطة بالأبيض والأحمر، تتماوج على رِسْلِها، كما لو أنَّها جزيرةٌ معدنيَّة تستجيب لتَجَاذُبات الموج والريح. قال فيرمين لنفسه إنْ استطاع الوصول إليها، سيكون في وسعه الاختباء داخلها وانتظار اللحظة الملائمة للمجازفة نحو البرّ دون أن يراه أحد. لا يبدو أنَّ أحدًا لاحظ وجوده، لكنّه لم يشأ تحدّي الغيب. عبّأ رئتيه المتعَبتين بأقصى ما تتّسعان من هواء وغَطَسَ من جديد، يشقّ دربه صوب العوّامة بتجديفٍ مشوَّش. وبينما كان يغوص، تجنَّبَ النظر إلى أسفل وآثر أن يُصدِّق أنَّ ذهنه وقع فريسةً لهذيانٍ رهيب، وأنَّ تلك الحديقة المأتميّة التي تترنّح في التيّار تحت قدميه ليست سوى شِباك صيدٍ عالقة بين الحُتات. ألقى نظرة خاطفة إلى ظهر السفينة وطمأن نفسه بأنّه في مأمن، فجميعهم، بمن فيهم فوميرو، ظنّوا أنّه قد مات. وعندما كان يتسلّق سطح العوّامة انتبه أنَّ أحدهم يراقبه مُتَسمِّرًا من هناك. فركَّزَ نظراتِه إليه برهةً، ولم يستطع تحديد هويّته، لكنّه افترض أنّ ملابسه لا يمكن أن تكون إلّا ملابس قبطان السفينة.

هَرَعَ للاختباء داخل الكابينة الصغيرة واستلقى فيها، يرتجف بردًا، ويتخيّل كيف سيأتون في غضون ثوانٍ لاعتقاله. أما كان من الأفضل أنْ يموت غريقًا داخل ذلك الصندوق! كان فوميرو والحال هذه سيقتاده إلى إحدى تلك الزنازين وسيخصِّص له كلّ الوقت الذي يراه مناسبًا.

انتظر لحظةً تدوم إلى الأبد، لكنّه عندما بات على يقينٍ من مشارفة مغامرته على النهاية، سمع صوت محرِّكات السفينة تتشغّل، والصافرة تدوّي. أطلّ برأسه خجلًا من كوّة الكابينة ورأى السفينة تبتعد نحو الرصيف. فاستلقى منهكًا لمعانقة الشمس الخجولة التي تندسّ من الكوّة. ربّما بسبب تلك المحنة، رَأَفَتْ عذراء الكَفَرَة بحاله.

(9)

ظلّ فيرمين على ظهر تلك الجزيرة الصغيرة حتّى أدمى الغروبُ السماءَ، وأشعلت أضواءُ المرفأ شبكةً من الضوء على سطح الماء. قرّر وهو يمسح الأرصفة بأنظاره أنّ الطريقة المُثلى هي السباحة إلى تجمُّع القوارب المحتشدة قبالة سوق الصيّادين، ومن ثَمّ التسلّق إلى اليابسة عبْر حبال الرسوّ أو دولاب الجرّ الموجود في مؤخّرة أحد القوارب الراسية.

لمح حينذاك طيفًا مرسومًا في الضباب الرابض على موقف المراكب. زورقٌ بمجدافين يحمل رجلين، يدنو منه. كان أحدهما يجدّف والآخر يبصر في الظلام بقنديلٍ يصبغ الضباب بلون الكهرمان.

ابتلع فيرمين ريقه. كان من الأفضل لو رمى نفسه بالماء وتوسَّل أن يغطّيه لحاف الغروب فيتسنّى له الفرار مرّة أخرى، لكنّه كان قد أنهى صلواته ولم يعد في جسده أيّ أثرٍ للرغبة في الاستبسال. خرج من مخبأه رافعًا يديه إلى أعلى يواجه الزورق الداني.

- أخفِضْ يديك. - قال صوتُ مَن يحمل القنديل.

أوسع فيرمين رؤيته. هو الرجل نفسه الذي رآه قبل ساعاتٍ يراقبه من سطح السفينة الأعلى. حدّق إليه وهزّ رأسه. صافح اليد التي امتدّت نحوه وقفز إلى الزورق. أعطاه الرجل الثاني غطاءً فتدثّر به الغريقُ ذو الحالِ الجديرةِ بالرثاء.

- أنا القبطان آرايث، وهذا نائبي برميخو.

تأتأ فيرمين بشيءٍ ما، لكنّ آرايث أوقفه.

- لا تقل لنا اسمك. هذا ليس شأننا.

أخرج القبطان الترمس وصبّ نبيذًا ساخنًا. فأمسك فيرمين كوب النحاس بكلتا يديه وازدرد حتّى القطرة الأخيرة. فمَلأ آرايث له الكوب مجدَّدا لثلاث مرّات. حتّى شعر فيرمين بالدفء يعود إلى أحشائه.

- هل أنت أفضل الآن؟ - سأله القبطان.

هزّ فيرمين رأسه بنعم.

- لن أسألك عمّا كنتَ تفعله في سفينتي، ولا حتّى عن المشاكل التي تورَّطتَ بها مع ذلك الحيوان فوميرو، لكنّي أنصحك بتوخِّي الحذر جيِّدا.

- سأحاول، صدِّقْني. سوى أنَّ القدر لا يساعدني.

مرّر إليه آرايث حقيبة. فألقى فيرمين نظرةً على داخلها. ثيابٌ ناشفة، بمقاسٍ أكبر من مقاسه بستِّ مرّات بطبيعة الحال، وبعضُ النقود.

- ما الذي يجبرك، يا سيّدي القبطان؟ لقد كنتَ هاربًا بطريقةٍ غير نظاميّة وسبَّبت لك مشكلة عويصة...

- لأنّ هذا ما يروق لي الآن. - ردّ آرايث، وأيَّده في ذلك برميخو.

- لا أعرف كيف أردّ لك المعروف...

- يكفيني ألّا تتسلّل ثانيةً إلى سفينتي. هيّا، بدِّلْ ثيابك.

نظر آرايث وبرميخو إليه يتخلَّص من تلك الخِرَقِ المبلّلة وساعداه على ارتداء الثياب الجديدة البهيّة: بدلة بحَّار قديمة. وقبل أن يتخلّى إلى الأبد عن سترته المهترئة، نبش فيرمين في الجيوب وأخرج الرسالة الّتي احتفظ بها مدّة أسابيع. لقد مسحت مياه البحر الحبرَ، واستحال الظرف إلى قطعة ورقٍ مبلّلة تتذرَّى بين اليدين. فأغمض فيرمين عينيه وانفجر باكيًا. نظر إليه الرجلان في حيرةٍ من أمرهما. حطّت يد القبطان على كتف فيرمين.

- هوِّنْ عليك، لقد انقضى الأسوأ.

هزّ فيرمين رأسه.

- لستُ لذلك أبكي... لستُ لذلك أبكي.

ارتدي الثياب ببطء وجمع ما تبقّى من الرسالة في جيب السترة الجديدة والفضفاضة.

- المعذرة.

- أنت في حالٍ يُرثى لها.

- بسبب غلطة الحرب الدائرة هذه. - اعتذر فيرمين - أمّا الآن وقد أوشك مصيري على التغيُّر، فإنّني أتنبأ بمستقبلٍ ذي موائد عامرة وحياةٍ ملؤها التفكُّر، سأحشو بطني بكرشة الخنزير وأعيد قراءة أجمل الأشعار التي كُتِبتْ في العصر الذهبيّ. يومان فقط، وأصير كالأصلة لكثرة ما سأبتلع من لحوم المورثيلا وحلوى القرفة. قد ترونني على هذه الحال، لكنّني عندما تحين الفرصة، يتراكم وزني بسرعةٍ تعجز عنها مغنيّات السوبرانو.

- إن كنتَ أنت مَن يؤكّد ذلك، فهو كذلك. هل لديك وجهة محدّدة؟ - سأله آرايث.

أومأ فيرمين متحمِّسًا، وهو يتباهى ببدلة قبطانٍ بلا سفينة، وبطنه تختلج بالنبيذ الفاتر.

- ثمّة امرأةٌ تنتظرك؟ - سأله البحَّار.

ابتسم فيرمين بحزن.

تنتظر. لكنّها لا تنتظرني أنا. - أجاب.

- فهمت. وهل كانت تلك الرسالة إليها؟

هزّ فيرمين رأسه بنعم.

- وهل من أجل ذلك خاطرتَ بحياتك وعدتَ إلى برشلونة؟

لتسليم رسالة؟

أعرب فيرمين عن لامبالاته.

- هي تستحقّ. ولقد وَعَدْتُ صديقًا عزيزًا.

- ميّت؟

أخفض فيرمين عينيه.

- في بعض الأحيان هنالك أنباءٌ من الأفضل عدم إيصالها. - ارتجل آرايث.

- لكنّ الوعد يظلُّ وعدًا.

- منذ متى لم ترها؟

- منذ أكثر من سنة تقريبًا.

حدَّق إليه القبطان مطوَّلًا.

- إنَّ سنةً واحدةَ مدَّة كثيرةٌ بالنسبة إلى هذا الزمان الذي نعيش فيه.

فالناس في هذه الأيّام تنسى بسرعة. النسيان مثل الفيروس، لكنّه يساعد على إبقائنا أحياءً.

- ليتني أتعاطاه، فقد ينفعني كثيرًا. - قال فيرمين.

(10)

أطبق الظلام عندما تركه الزورق عند أعتاب درج الرصيف أتراثانس. تبخَّر فيرمين في ضباب المرفأ، واستحال طيفًا بين كثيرٍ من الشيَّالين والبحَّارة السائرين نحو شوارع الرافال، من خلال الحيّ الصينيّ. اختلط فيرمين في جموعهم، واستشفّ من محادثاتهم الهامسة أنَّ المدينة في اليوم السابق قد تعرَّضت لغارةٍ جويّة، إحدى تلك الغارات الكثيرة التي بدأت مطلع العام، وأنّهم كانوا في الليل يترقّبون عدوانًا جديدًا. كان يشمُّ رائحة الخوف في أصوات أولئك الرجال ونظراتهم، لكنّه بعدما نجا من ذلك النهار اللعين اقتنع بأنّ الليلة لن تجود عليه بأسوأ ممّا عاناه. وها قد شاءت العناية الإلهيّة أنْ يصادف في طريقه بائعًا جوّالًا عقب انتهائه من العمل يدفع عربته الملأى بالطيِّبات. أوعز إليه بالتوقُّف وراح يتقصّى تلك البضاعة باهتمامٍ شديد.

- لديّ من حلوى المكسّرات كتلك التي كانت تُباع قبل الحرب.

- اقترح عليه البائع - هل يريد السيّد منها؟

- أتنازل عن عرش مملكتي مقابل حبّة سوغوس. - حدّد فيرمين مراده.

- بقي عندي كيسٌ صغير من السوغوس بنكهة الفراولة.

جحظت عينا فيرمين حتّى صارت مثل طبقين، ولمجرّد سماعه ذِكر اللذائذ سال لعابه. وبفضل تمويل القبطان آرايث، تمكّن من شراء كيس كامل من السكاكر، ففتحه بشراهة المحكوم بالإعدام.

كانت أبخرة ضوء أعمدة الإنارة في لاس رامبلاس - كالمصّة الأولى لحبّة سوغوس - تبدو له أحد تلك الأشياء التي تستحقّ أن يعيش المرء يومًا أخيرًا لرؤيتها. ورغم هذا، لاحظ فيرمين في ذلك المساء، وهو يسلك الممشى الرئيس في لاس رامبلاس، أنَّ مجموعةً من الحرس الليليّ كانوا يتنقّلون حاملين سلَّمًا من عمود إنارةٍ إلى آخر ويطفئون الأضواء التي ما زالت تنعكس على البِلاط. اقترب من أحدهم وأخذ يتمعَّن في عمله. وعندما نزل الخفيرُ من على السلّم وانتبه لوجوده، توقَّف ونظر إليه شزرًا.

- مساء الخير يا سيّد. - نغّم بنبرة ودّيّة - هل يؤسفك إذا سألتُك عن سبب إغراقكم المدينة بالظلام؟

اكتفى الخفيرُ بإشارةٍ إلى السماء، وحمل سلَّمه متَّجها إلى العمود التالي. ظلّ فيرمين هناك برهةً يتأمّل غرابة مشهد لاس رامبلاس تغوص في العتم شيئًا فشيئًا. وباشر أصحاب المحلات والمقاهي حوله بالإغلاق، وصار زجاج الواجهات يُصْبَغُ بأنفاسِ القمر الخافتة. استعاد طريقه متخوِّفًا وسرعان ما اصطدم بما بَدا له مسيرةً ليليّة. حشدٌ غفيرٌ من الأشخاص يحملون صُرَرًا وأغطية متّجهين نحو مدخل المترو. كان بعضهم يحمل شموعًا وفوانيس منيرة، وآخرون يتقدّمون تحت الظلام.

وبينما تجاوز الدرج النازل إلى المترو، حطّت أنظاره على طفلٍ لا يزيد عمره عن خمسة أعوام. كان متشبِّثًا بيد أمّه، أو جدّته، ففي الافتقار إلى الضوء بدت تلك الأرواحُ كلُّها قد شاخت قبل الأوان. غمز له فيرمين بعين، لكنّ الطفل وجَّه نظره إلى السماء. كان يشاهد شبكة السُّحُب السوداء تتلبّد في الأفق كما لو أنَّه يبصر شيئًا مُخبّأ فيها. تبع فيرمين نظرات الطفل وأحسَّ بلمسة ريحٍ باردة تستهلّ هبوبها

على المدينة، ولها نكهة الفسفور والخشب المحروق. وقبل أن تجرّه أمّه نزولًا في السلالم نحو أنفاق المترو، سدّد الصغيرُ نظرةً كادت تجمِّد الدماء في عروق فيرمين. عينا طفلٍ في ربيعه الخامس، تشيان برهبةٍ عمياء ويأسٍ عجوز. أشاح فيرمين نظراته عنه واستعاد طريقه، ليصادف عامل دفاعٍ مدنيٍّ يراقب مدخل المترو ويوجِّه إليه سبّابته.

- إن ذهبتَ الآن من هنا، لن تجد مكانًا فيما بعد. الملاجئ مزدحمة.

أومأ فيرمين لكنّه عجَّل الخطي. وولج هكذا إلى برشلونة التي بدت له شبحيَّةً، تحت ظلام سرمديّ لا تُدرَك حدودُه إلّا بضياءٍ واهنٍ ومرتعشٍ يفوح من القناديل والشموع المنصوبة على الشَّرفات وفي الردهات. وحالما سلك لارامبلا دي سانتا مونيكا أخيرًا، تراءى له في البعيد قوس قنطرةٍ ضيِّقة ومظلمة. تنهَّدَ مغمومًا واتّجه صوب لقائه لوثيا.

(11)

صعد السلالم الضيّقة ببطء، وهو يشعر عند كلّ عتبةٍ بتلاشي عزيمته وشجاعته على مواجهة لوثيا لإنبائها بأنّ الرجل الذي كانت تحبّه، والد ابنتها وصاحب الوجه الذي كانت ترجو رؤيته منذ أكثر من عام، مات في زنزانة أحد سجون بلنسية. وعندما وصل إلى مستراح الطابق الثالث، تجمَّدَ فيرمين عند الباب لا يجرؤ على طرقه. جلس على العتبات وأغرق رأسه بين يديه. كان يذكر جيِّدا تلك الكلمات التي لفظها هناك تمامًا قبل ثلاثة عشر شهرًا، عندما أخذت لوثيا يديه في يديها وقالت له وهي تنظر في عينيه: «إن كنتَ تحبُّني، لا تسمحْ بأن يحدث له مكروه وأعِدْه إليّ». أخرج من جيبه الظرف التالف وعاين أشلاءه تحت الظلام. ثمّ جمعها بقبضته وألقى بها في العتمة. نهض وكان يتهيَّأ للفرار بجِلده عبْر السلالم عندما سمع الباب ينفتح خلف ظهره فتوقَّف.

طفلةٌ ذات سبعة أو ثمانية أعوام كانت تراقبه من عتبة الباب.

تحمل في يدها كتابًا، وقد غرستْ إصبعًا بين صفحاته كي لا تضيِّع العلامة. ابتسم لها فيرمين ورفع يده بما يشبه التحيّة.

- مرحبًا يا أليثيا. - قال - هل تذكرينني؟

نظرت إليه الطفلة متردِّدةً، بما ينمّ عن التباس.

- ماذا تقرأين؟

- «أليس في بلاد العجائب»

- جميل! هلّا أريتني؟

أظهرتِ الطفلة الكتاب على مرآه دون أن تأذن له بمسّه.

- إنّه أحد كتبي المفضّلة. - قالت، لكنّها ما تزال متحفِّظةً وغيرَ واثقة.

- ومفضَّلٌ عندي أيضًا. - ردّ فيرمين - أيُّ شيءٍ يتعلّق بالسقوط إلى أسفل عبْر حفرة، ومصادفة أشخاصٍ معاتيه ومسائل رياضيّة، أعتبره جزءًا من سيرتي الذاتيّة.

عضّت الطفلة شفتها لتحبس ضحكتها من سماع كلام ذلك الزائر غريب الأطوار.

- نعم، لكنّ هذا الكتابَ ألَّفوه من أجلي. - ارتجلت بلؤم.

- بالتأكيد. هل والدتك في البيت؟

لم تُجِبْ، لكنّها فتحت الباب قليلًا. فتقدَّمَ فيرمين خطوة.

استدارت الطفلة وابتعدت نحو الداخل من دون أن تفتح فمها. تجمَّد فيرمين عند العتبة. كان المسكن مظلمًا، يتراءى منه بالكاد رفيفُ ما بدا أنّه قنديلٌ في نهاية ممرٍّ ضيِّق.

- لوثيا؟ - نادي عليها.

تاه صوته في العتم. فطرق الباب ببراجم يده وانتظر.

- لوثيا؟ هذا أنا... - نادي مجدَّدا.

انتظر بضع ثوانٍ، وحين لم يصله جواب دخل إلى الشقّة. تقدَّم على امتداد الممرّ. كانت الأبواب على الجانبين مغلقة. وحين وصل إلى آخره، وجد نفسه في غرفةٍ تؤدّي مهام صالة الطعام. وكان القنديل على الطاولة يرسمُ هالةً صفراءَ خافتةً تداعب الظلال. رأى طيف امرأة عجوز، جالسة على الكرسي قبالة النافذة، تولي ظهرها إليه.

- السيّدة ليونور...

لم تكن المرأة التي بدت لناظريه عجوزًا، لم تكن قد تجاوزت الخامسة والأربعين عامًا. كانت بشرة وجهها متجعِّدة من الأسى، ودموعُها حبيسة عينيها المرهقتين من الحقد والبكاء في عزلة. نظرت إليه ليونور دون أن تنبس ببنت شفة. أمسك فيرمين بأحد الكراسي وجلس بجانبها. أخذ يدها بيده وابتسم لها بحُرقة.

- كان عليها أن تتزوّجك أنت. - قالت المرأة - إنّك قبيح، ولكنْ لديك دماغ على الأقلّ.

- أين لوثيا يا سيّدة ليونور؟

أشاحت نظراتِها عنه.

- لقد أخذوها بعيدًا. منذ شهرين تقريبًا.

- إلى أين؟

لم تُجِبْ.

- مَن فعلها؟

- ذلك الرجل...

- فوميرو؟

- لم يسألوا عن إرنستو. كانوا يريدونها هي.

عانقها فيرمين، لكنّ ليونور ظلّت جامدة.

- سأعثر عليها يا سيّدة ليونور. سأعثر عليها وسأعيدها إلى بيتها.

هزّت ليونور رأسها.

- وابني؟ هل مات حقًّا؟

التزم فيرمين الصمت.

- لا أدري يا سيّدة ليونور.

نظرت إليه ساخطةً وصفعتْه بكفّها.

- اغرب عن وجهي.

- سيّدة ليونور.

- اغرب عن وجهي. – انتحبت نهض فيرمين وتراجع إلى الخلف بضع خطوات. كانت الصغيرة أليثيا تراقبه من الممرّ. فابتسم لها إلى أن دنت منه ببطء. ثمّ أمسكت بيده وضغطت عليها بشدّة. فقرفص فيرمين قبالتها. كاد يقول لها إنّه صديق والدتها، أو أيَّ كلام من شأنه أن يمحو ملامح الفقدان التي سحرت نظرتها. إلّا أنّه في تلك اللحظة تمامًا، بينما كانت ليوًنور تكبت دموعها بيديها، أحسّ فيرمين بطنينٍ ناشزٍ يقطر من السماء، فرفع عينيه نحو النافذة، ليرى أنّ الزجاجَ آخِذٌ بالارتجاج.

(12)

دنا فيرمين من النافذة ونحَّى الستارة. رفع عينيه نحو المنور الذي يحبس السماء بين أطراف الزقاق الضيِّق. صار الطنين أكثف وأقرب كثيرًا. ظنّ في البدء أنّ إعصارًا يوشك على الهبوب من جهة البحر، فتخيَّل سُحُبًا سوداء تكتسح أرصفة الميناء وتقتلع الأشرعة والسواري في طريقها. لكنّه لم يسبق له أن عَلِقَ في قلب إعصار له أصداء معدنيّة ونارية. انقشعت خِرَقُ الضباب الخفيف لتكشف عن قطعة صافية من السماء، فرأى. سربٌ من طائرات تبرز من العتم وتحلِّق مثل حشرات فولاذيّة عملاقة. ابتلع ريقه ووجّه أنظاره إلى ليونور وأليثيا، التي كانت ترتجف؛ وما زالت الطفلة تحمل الكتاب بين يديها.

- أعتقد أنّه من الأفضل أن نغادر هذا المكان. - غمغم فيرمين.

هزّت ليونور رأسها.

- سيمرّون من بعيد. - قالت بصوتٍ ذاوٍ - مثل مساء أمس.

التفت فيرمين إلى السماء ثانيةً واستطاع أن يحدّد فرقةً مكوَّنة من ستّ أو سبع طائرات تنفصل عن السرب. فتح النافذة ومدَّ رأسه إلى الخارج: بدا له أنّ فرقعة المحرِّكات تلج لاس رامبلاس. فسمع حينذاك أزيرًا حادًّا، كأنّ مثقابًا يفتح طريقه في السماء. غطّت أليثيا أذنيها بكلتا يديها وهَرعَت لتختبئ تحت الطاولة. مدّت ليونور ذراعيها لتحتويها، لكنّ شيئًا أوقفها. فقبل بضع ثوانٍ من سقوط القذيفة على المبنى، احتدّ الأزيز حتّى بدا أنّه ناجمٌ عن الجدران نفسها، وظنّ فيرمين أنّ الصوت سيثقب طبلة أذنيه.

إلّا أنّ الصمت هبط في تلك اللحظة تمامًا.

سمع صوت ارتطام مفاجئٍ يهزُّ البناية هزًّا، كأنّ قطارًا بأكمله يهوي من بين الغيوم ويخترق السطح وكلًّا من الطوابق على حدة، كما لو أنّها عُلَبُ سجائر. تشكَّلت بعض الكلمات على شفاه ليونور، لكنّ فيرمين لم يتمكّن من سماعها. وخلال جزء من الثانية، مادت به الأرض بفعل دويٍّ منيعٍ وصلبٍ يجمِّد الزمن، فرأى الجدار خلف ليونور يتفسّخ بغمامةٍ بيضاء فيما يلتفّ لسانُ نارٍ بالكرسيّ التي تجلس عليه ويبتلعها. اقتلع الانفجار في تأثيره نصفَ الأثاث الذي ظلَّ معلَّقًا في الفراغ حتّى اشتعل. لفحت فيرمينَ موجةُ هواءٍ حارقةٌ كالنفط الملتهب فارتطم بالنافذة بشدَّة هشَّمتِ الزجاجَ ثمّ اصطدم بالقضبان المعدنيّة للشرفة. وصار الدخان ينبعث من السترة العريضة - هديّة القبطان آرايث - والتي كادت تكوي جِلده. وعندما حاول النهوض لينزعها عنه، شعر بالأرض تتزلزل تحت قدميه. إنْ هي إلّا ثوانٍ معدودة وانهار الهيكل المركزيّ للمبنى في دوّامة من جمرٍ وحطامٍ على مرأى ناظريه.

تمكّن فيرمين من النهوض ونزع عنه السترة المتفحِّمة. أطلّ برأسه إلى الغرفة. فوجد كفنًا من دخانٍ حمضيٍّ وضاربٍ إلى السواد، يلعق الجدران التي ما تزال صامدة. لقد سحق القصفُ قلب المبنى، ولم يبق شيء على حاله سوى الواجهة والخطّ الأوّل من الغرف التي تطوِّق تلك الفوهة التي خلَّفتها